مقدمة

إن مطبوعة "تاريخ الجزائر الحديث بين القرنين الـ 16-19م" موجّهة إلى طلبة السنة الثانية تاريخ عام، حيث تعالج الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الجزائر العثمانية، ذلك أن تاريخ المنطقة قد شهد تقلبات سياسية وثورات اجتماعية جعلت الجزائر دوما على نار متأججة طيلة ثلاثة قرون كاملة حيث لم تكن تنتهي ثورة حتى تقوم أخرى، ولا ينصّب داي إلاّ وقد قتل الذي قبله أو عزل، حتى أن الداي الذي يموت موتة طبيعية "يُصبح قبره مزارا للتبرّك"، ويذكر هابنسترايت أنّه "شهد مقتل ستة دايات في يوم واحد"[1]، في حين يؤكد موريس لوكلارك: "أن خمس دايات قتلوا تباعا في يوم واحد سنة 1700م، ودفنوا في نفس المكان جماعة".[2]

وهكذا فإنّ كثرة الأحداث واتصالها ببعضها البعض قد جعلني أقبل على اتباع سبيل الاختصار في إنجاز هذه المطبوعة، ذلك أن كثرة المواضيع المطروحة جعلت من المستحيل إنجاز عمل أكاديمي يشمل جميع التاريخ الجزائري خلال العهد العثماني؛ خاصّة وأنّه موجه لطلبة في بداية مسارهم التاريخي.

وقد قسمت العمل إلى ثماني محاضرات، عنونت أولها بـ"الغزو الإيبيري للمغرب العربي 1492_1510م"، وتطرقت فيها إلى سقوط غرناطة وبداية التوسع الاسباني والبرتغالي في المغرب والجزائر وتونس وطرابلس، ثم تناولت في المحاضرة الثانية وصول الأخوين عروج وخير الدين إلى تونس سنة 1510م، واتصالهم بأهل الجزائر وتحرير جيجل والجزائر العاصمة وبعض الثغور الأخرى، فإلحاق الجزائر بالدولة العثمانية سنة 1519م.

كما عالجنا في المحاضرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة تطور نظام الحكم في الجزائر حيث أفردنا لكل محاضرة أحد نظاما معيّنا، فجاءت المحاضرة الثالثة لتعرض عهد البايلربايات والرابعة لعهد الباشاوات والخامسة لعهد الأغوات أما المحاضرة السادسة فخصصت لعهد الدايات. في الوقت الذي تناولت فيه المحاضرة السابعة طبيعة المجتمع الجزائري، فأرخت لعاداته وتقاليده ولباسه ومأكله ومشربه وتركيبته الاجتماعية، ثم تناولنا في المحاضرة الثامنة وهي آخر محاضرة من المقرر " التعليم والمؤسسات الثقافية".

لقد كانت أهم الصعوبات والعوائق التي واجهت عملية إنجاز هاته المطبوعة شساعة المقرر وصعوبة التحكم في محتوياته ونقله إلى الطلبة في شكله المختصر دون الوقوع في فخ الاسهاب أو الاطناب ومحاولة تغطية جميع حقب الفترة الحديثة.

وهكذا فإن محتوى المطبوعة لم يجب على جميع تساؤلات الطلبة، ولسد هذه الثغرة حاولنا توجيه الطلبة إلى بعض المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع، وكذا تقديم بحوث وشروح في الحصص التطبيقية من أجل تدارك النقص الذي نتج عن اتساع نطاق البحث.

محتويات الدّرس

السداسي: الرابع.

عنوان الوحدة: التعليم الأساسية.

المادة: تاريخ الجزائر الحديث ما بين القرنين (16-19م).

أهداف التعليم:

- تمكين الطالب من معرفة تاريخ الجزائر في ظل الحكم العثماني.

المعارف المسبقة المطلوبة:

- يدرك مدى تاثير الحضارة الأندلسية والمشرقية في تطورات المغرب الحديث، فضلا على معرفته نظم الحكم في المغرب الاسلامي من السعديين، العلويين، والحفصيين.

محتوى المادة:

- الغزو الإيبيري للبلدان المغاربية.
- التطور السياسي للجزائر في العهد العثماني.
- العلاقات الدولية للجزائر في التاريخ الحديث.
- الدولة والمجتمع في الجزائري أثناء الفترة العثمانية (نظام الحكم، الاقتصاد، الأوقاف، التعليم، الزوايا، التنظيم الاجتماعي).

طريقة التقييم:

- علامة الأعمال الموجهة 50%+ الامتحان50%.

المراجع: (كتب ومطبوعات، مواقع انترنت، إلخ

مقدّمة

المحاضرة الأولى

الغزو الإيبيري للمغرب العربي أواخر القرن 15م ومطلع القرن 16م.

1-الصراع السياسي في دول المغرب العربي 1492-1500م.

2- أسباب الاحتلال الإيبيري للمغرب العربي.

3- الاحتلال البرتغالي والاسباني لمناطق المغرب العربي.

لقد شهد سقوط غرناطة في يد الإسبان سنة 1492م، بداية لعهد جديد من التوسع الإيبيري على منطقة المغرب العربي، "فبعد الانتهاء من طرد المسلمين من شبه الجزيرة الايبيرية راح البرتغاليون تحت قيادة جون الثاني والإسبان بقيادة إيزابيلا وإكسيميناس، يفكران في اقتسام ثروات المغرب العربي الذي يعيش حالة من الفوضى والصراع السياسي".[3]

وفعلا بدأ التوسع الايبيري باكرا في المغرب الأقصى، تلته الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، حيث أن الكثير من المناطق إما أصبحت ملكا للإسبان بالقوة والإحتلال أو برضوخ حكامها للمحتل وقبول دفع الجزية، مثلما وقع مع كلّ من تنس والجزائر العاصمة.

1- الصراع السياسي في دول المغرب العربي 1492-1500م:

كان المغرب العربي مقسما بين ثلاث دول هم: المرينيون في المغرب والزيانيون في الجزائر والحفصيون في تونس، حيث حكم الزيانيون الجزائر لقرون وذلك إلىغاية سقوطها سنة 1554م، أين خضعت في البداية للدولة الموحدية "وتوسعت في بلاد بني واماتوا ووبني يلومي وبنواحي وادي ميناس وأحواز غليزان".[4]

لكن ما إنبدأت الدولة الموحدية في الانهيار حتى سارع حكام الدولة الزيانية إلى الاستقلال بأنفسهم والسيطرة على المغرب الأوسط، ولم يكن هذا الاستقلال إلاّ بداية لتفكك المغرب العربي إلى دويلات استقلت بنفسها عن سلطة الموحدين، ثم سرعان ما أصبحت دولا متقاتلة فيما بينها، حيث حاول المرينيون والحفصيون مرارا احتلال الجزائر وإلحاقها بدولتهم، فاحتل الحفصيون بجاية وقسنطينة والزاب.

لقد كان امتداد الدولة الزيانية الفعلي لا يتجاوز مدينة تلمسان في الحقيقة وساحل البحر، في حين كانت المناطق الجزائرية الأخرى عبارة عن إمارات ودويلات مستقلة، مثل: مدينة تنس، والجزائر العاصمة التي يحكمها الثعالبة –سالم التومي– تحت نظام الجماعة، ومملكة كوكو تحت سلطة ابن القاضي بالإضافة إلى هضاب التيطري، وملیانة... إلخ.

وأما سلطة الحفصيين "فقد امتدت لتشمل الجزء الشرقي من الجزائر، مثل: قلعة بني عباس وإمارات أخرى راوحت مكانها فمرّة تستقل لنفسها بالحكم وتارة أخرى تدين بالولاء إما للزيانيين أو الحفصيين، مثل "إمارة بني المهلهل، وإمارة عائلة بوعكاز التي تمثل العرب الذواوة في الزاب والحضنة وبعض جهات الصحراء، وجهة حمزة وقبائل صنهاجة،[5] غير أنّها ومثل باقي الدول المغاربية "سرعان ما آلت إلى التفكك تدريجيا بداية من سنة 1400م، وحلّت مكانها دويلات صغيرة استولت على معظم الموانئ الكبيرة في المغرب العربي، مثل طرابلس والجزائر وبجاية".[6]

وأما في الجهة الغربية فقد كان المغرب الأقصى تحت سلطة بني مرين، الذين استقلوا هم بدورهم عن الدولة الموحدية، وأحكموا قبضتهم على إمارة فاس ومراكش، في حين انفصلت إمارة سجلماسة تحت قيادة بنو معقل، وأما الوطاسيون فقد حكموا سلا والرباط.

وما إن أتت سنة 1472م حتى استولى الوطاسيون على فاس ونصّبوا أنفسهم حكاما جددا على المغرب الأقصى عامّة، حيث أطلق الملك المغربي لنفسه لقب "السلطان" وفي أحيان أخرى "أمير المؤمنين".

وقد صاحب هذا التدهور السياسي انفلات ثقافي خطير، حيث يذكر الوزان بقوله: "إن القصر الذي كانت فيه خزانة الكتب في مراكش، أستعمل منه جناح للدجاج وآخر للحمام وأصبحت الخزانات التي ترضع فيها الكتب، أقفاصا لهذه الطيور... في حين أن إحدى المدارس الكبرى التي كان بها عدد هائل من الطلاّب هي اليوم مجرد مدرسة صغير لا يتجاوز عدد طلبتها الخمسة، حيث يدرّسهم أستاذ جهله بالفقه فاحش، ليس له سوى معرفة سطحية غامضة بالآداب، وأقل من ذلك بالعلوم".

وهكذا فالمغرب العربي كان يشمل منطقتين متباينتين هما: منطقة تخضع للحكومات الواهية التي كانت تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة، بنو حفص بتونس يحكمون نظريا البلاد التونسية وطرابلس، وفيهم فرع آخر يحكم شرق البلاد الجزائرية، بجاية وقسنطينة والزاب، في حين يحكم بنو مرين الوطاسيون المغرب الأقصى إلى مدينة وجدة، وأمّا بنو زيان التلمسانيون فيحكمون نظريا مابين ذلك، غير أنّهم لا يحكمون عمليا إلا ضواحي تلمسان وساحل البحر إلى مقربة من مدينة الجزائر، وتقبع بقية البلاد الوسطى والجنوبية تحت سلطة إمارات قبلية...[7].

2- أسباب الإحتلال الإيبيري للمغرب العربي:

- ضعف السلطات المغاربية سياسيا وعسكريا، ما جعلها في حالة لا تسمح لها بالدفاع عن ثغورها وسواحلها.

- الروح الصليبية وسيطرة الكنيسة على السياسة حيث انعكس هاته الروح على حكامها الذين أعلنوا حربهم ضد كل ما هو إسلامي في المغرب العربي، حيث سميّت هاته الحروب بـ "حروب الإسترداد أو Reconquista، أي أن كل ما يقع على سواحل شمال إفريقيا هو إرث للإمبراطورية

الرومانية، ويجب إستعادته من قبل المسيحيين الأوربيين[8]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد "ذهب البرتغاليون إلى أبعد من ذلك حينما فكّروا في القضاء على الإسلام نهائيا، وذلك من خلال احتلال منطقة الحجاز ومكة المكرمة، فقادوا حصار على مدينة جدّة التي لا تبعد سوى 79 كلم عن مكة المكرمة سنة 1517م، بقيادة لوبو سواريز دي ألبيرغاريا غير أن القائد العثماني سلمان رايس تمكن من منعهم من الرسو على الساحل".[9]

– العمل على استغلال ثروات المنطقة خاصة تلك المتعلّقة بالمنتوجات الزراعية، وحتى بعض المعادن، مع العلم أنّ الاقتصاد الاسباني قد تضرر كثيرا نتيجة هجرة ساكنة الأندلس واستقرارها على سواحل المغرب العربي.

– اعتبر الملوك الإسبان أنفسهم القادة الاحقيقيين للعالم المسيحي ولهذا فهم الورثة الشرعيون للامبراطورية الرومانية، حيث سادت فكرة "ملك واحد ودولة واحدة"[10]، فأسس الاسبان إمبراطورية مسيحية وبدؤوا توسعاتهم في كل من فرنسا وإيطاليا بالاضافة إلى المغرب العربي، فمنذ عهد الملكة إيزابيلا وفيرديناند ووصولا إلى الملك شارل الخامس، كانت "الفكرة السائدة لدى الملوك لإسبان هي أنهم المسؤولون عن طرد الأتراك والمورسكيين من الممتلكات الاسبانية واستعادة القسطنيطنية والقدس من يد العثمانيين وتوحيد العالم على الديانة المسيحية".[11]

– السعي للسيرة على تجارة الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط، خاصة مع "أهمية الموقع الاستراتيجي الذي تزخر به المدن الساحلية الممتدة من طرابلس ووصولا إلى المغرب الأقصى".[12]

– ادعى الإسبان أن سكان المدن الساحلية في منطقة المغرب العربي، وبخاصة بعد أن انضمّ إليها مسلمي غرناطة والاندلس عامة، أصبحت منطقة تنطلق منها الغارات البحرية ضد السواحل الإسبانية، مثل: مدينة وهران طرابلس الغرب وجربة وسلا وباقي مدن المغرب العربي.

3– الاحتلال البرتغالي والاسباني لمناطق المغرب العربي:

في الوقت الذي كانت الدويلات المغاربية غارقة في التناحر فيما بينها وتعيش انفصالا بغيضا، كان الاسبان والبرتغاليون قد بدؤوا في احتلال المغرب العربي بمجرد سقوط غرناطة سنة 1492م.

وتعود أولى عمليات الاحتلال في المغرب العربي إلى الحملة الإسبانية على مدينة تطوان سنة 1400م، حيث يذكر أحمد توفيق المدني أن الاسبان "قد احتلوا مدينة تطوان وأثخنوا فيها القتل حتى ذهب البعض إلى أنّهم قد قتلوا نصف أهل المدينة، وساقوا الكثير من رجالها ونسائها أسرى إلى إسبانيا، في الوقت الذي كان فيه ملك المغرب أبو سعيد عثمان يحارب مملكة بني زيان بتلمسان"[13]، وفي سنة 1438م اتجهت الحملات الصليبية إلى طنجة وتطوان على الساحل، وامتد نفوذ الإسبان إلى أن بلغ مدينة مراكش نفسها[14]، بهدف شطر المغرب الإسلامي عن

الأندلس، مما يؤكد تغلغل الروح الصليبية في الأسبان والبرتغاليين، الذين كانوا ينسقون مع باقي الدول الصليبية عن طريق البابا[15]، وفي سنة 1497م قاد بيدرو إيستوبنيان حملة عسكرية لاحتلال مليلية بأمر من الملكة إيزابيلا وفيرديناند وتمكن من احتلالها،[16]رغم أن السكان راحوا يستنجدون بسلطان فاس الذي لم يرسل لمساعدتهم سوى خمسمائة مقاتل، الأمر الذي جعل السكان يقررون في النهاية مغادرة المدينة، وبعد فترة قصيرة احتل الاسبان مدينة رساغة وجعلوا عليها حامية إسبانية"،[17]كما أرسلت حملة لاحتلال وهران والمرسى الكبير سنة 1497م تحت قيادة دوق المدينة سيدونيا، غير أن هاته الحملة عادت خائبة دون أن تحقق أهدافها.[18]

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ففي الجانب الآخر" احتل البرتغاليون سبتة سنة 1415م واستولوا على آزمور سنة 1468م، وفي المقابل انطلقت الأطماع الاحتلالية البرتغالية مبكرا في الغرب الجزائري، "حيث احتل البرتغاليون المرسى الكبير سنة 1471م ولم يغادروه إلا سنة 1477م، ثم أقاموا مؤسسة تجارية في وهران سنة 1483م وأخرى سنة 1487م".[19]

لقد اشتدّت الحملات الصليبية الإحتلالية بمجرد سقوط غرناطة سنة 1492م، حيث راسل كاتب الملكين المدعو فيرديناند زافر الملك الاسباني يقول: إن البلاد [المغرب العربي] في حالة بحيث يبدو أن الرب يريد أن يهبها لصاحبي الجلالة"[20]، كما كانت آخر وصايا الملكة إيزابيلا

وهي على فراش الموت –12 أكتوبر سنة 1504م–، قولها:"إنّي لأدعو بإخلاص ابنتي والأمير زوجي، أن يكونا المعين الأكبر لكل تلك الأمور التي تتعلق بالرّب والعقيدة المسيحية اقتداء بالملوك الكاثوليك، ولهذا فعليهما ودون أي تأجيل احتلال البلاد الإفريقية، ومحاربة الكفار من أجل رفع راية الدين"[21]، وهكذا بدأ عصر جديد من عملية الغزو لدول المغرب العربي، ولإنهاء الصراع الاسباني البرتغالي توصل الطرفان إلى اتفاق انتهى بتوقيع معاهدة "توردیلاس بتاريخ الـ 07 جوان سنة 1494م، أين تمّ بموجبها تقسيم العالم إلى منطقتي نفوذي بين الاسبان والبرتغلايين، حيث تعود الأراضي التي تقع في الجهة الغربية من جزيرة الرأس الأخضر للاحتلال الاسباني، أما تلك الواقعة في الجهة الغربية فهي ملك للبرتغاليين"[22]

أرسل الإسبان في البداية جواسيس إلى منطقة المغرب العربي، ففي سنة 1493م "قام ليزكانو ولورينزو دي زافرا برحلات تجسسية إلى سواحل المغرب الأقصى، وأقام لورينزو دي باديلا حاكم أنتيكييرا في زيّ تاجر مغربي في تلمسان مدّة سنة كاملة.[23]

ولم تتوقف الأطماع الاسبانية عند هذا الحد، فقد دعى رئيس الأساقفة الإسبان الملكة إيزابيلا إلى الاحتلال الكامل للمغرب سنة 1499م، وقد وافقت الملكة على الفكرة مدفوعة بالحماس الديني

لكن وفاتها سنة 1504م، جعل فيرديناند الطامح إلى توسيع الوجود الإسباني في البحر المتوسط يعدل عن الفكرة ويقرر بناء إمبراطورية إسبانية تمتد في إيطاليا، في حين يقتصر الوجود الإسباني في المغرب العربي على حاميات تفرض على دوله ومناطقه دفع الضريبة وإعلان الولاء للإسبان.[24]

أمام تنامي التجارة البرتغالية في وهران، أعطى الملك البرتغالي موافقته لقيادة حملة جديدة ضد المرسى الكبير سنة 1501م، غير أن سوء الأحوال الجوية حال دون رسو الجيش البرتغالي خلال ثلاثة أيام كاملة، حيث سمحت هاته المهلة للساكنة المحلية الاستنجاد بأهل القرى والمدن المجاورة، حيث تمكنوا في النهاية من هزم القوات البرتغالية ودحرها.[25]

وجه الإسبان بعدها حملة على المرسى الكبير عام 1505م، أين تم تجميع أسطول كلّف السلطات الإسبانية 3000 أيكة ذهبية،[26] تكوّن من 170 سفينة حربية في ميناء ملقة، على متنه سبعة آلاف جندي إسباني، في حين أوكلت مهمة قيادة الحملة إلى قائد البحرية رامون دي قرطبة، أما الجيش فسلّمت مقاليده لدييغو فيرناندیز دي قرطبة[27]، وقد غادر الأسطول ملقا بتاريخ الـ 09 سبتمبر سنة 1505م، وبلغ السواحل الجزائرية في 10 من نفس الشهر[28]، حيث بدأ الهجوم في مساء ذلك اليوم، " ولأنّ المدافعين لم يتجاوز عددهم خمسمائة مجاهد، فإن المدينة سقطت في أيدي الإسبان"،[29] ويذكر ديغرامون قائلا: "لقد قام الجزائريون بمقاومة شجاعة عديمة الجدوى، لكن نيران السفن أجبرتهم على التراجع إلى الجبال، حيث احتل الاسبان قلعة المدينة وجعلوا منها حامية لأنفسهم".[30] وما إن وصل الخبر إلى إسبانيا حتى أعلنت احتفالات الشكر والصلاة للرب ثمانية أيام كاملة[31].

وكما كان متوقعا فإن احتلال المرسى الكبير لم يكن سوى بداية لحرب يسميها الاسبان "حرب الاسترداد"، أي استرجاع جميع الأراضي التي كانت تحت حكم الرومان في منطقة المغرب العربي، وهي بالنسبة لهم إرث مسيحي يجب ضمه إلى الإمبراطورية المسيحية الإسبانية الجديدة.

وهكذا وجه الاسبان أنظارهم نحو وهران، أين بدؤوا في التحضير للحملة، حيث "غادر قائد حامية المرسى الكبير إلى إسبانيا والتقى هناك الملكة خوانا التي منحته خمسة آلاف جندي، وجميع التجهيزات الضرورية التي يحتاجها"[32]، وفي 06 جوان سنة 1507م فشل الإسبان في احتلال وهران، رغم أنهم أثخنوا القتل والسبي والأسر في أهلها، كما "تمكن يحيى الثابتي من احتلال تنس بإعانة من الإسبان سنة 1507م".[33]

احتل بيدرو نافارو في السنة الموالية قلعة باديس سنة 1508م[34]، ثم وجهوا أنظارهم نحو مدينة وهران مجددا، فخصص التاج الاسباني 39,6 مليون مرافيدي لاحتلال المدينة، وهي مبالغ ضخمة إذا قورنت بالمبالغ التي دفعها الاسبان في احتلال القارة الأمريكية والتي لم تتجاوز قيمتها 14 مليون مرافيدي[35].

أبحرت الحملة من ميناء قرطاجنّة بتاريخ الـ 16 ماي سنة 1509م، وعلى متنها 15 ألف مقاتل، حيث نزلت بميناء المرسى الكبير يوم 17 ماي، ثم اتجهت نحو مدينة وهران؛ ورغم المقاومة التي أبداها أهل وهران في مجابهة المد الاسباني، إلاّ أن الخائن اليهودي ستورا وبعض المتواطئين قاموا بفتح أحد أبواب المدينة عن غفلة من المجاهدين، فاقتحم الاسبان المدينة وفتحوا

باقي الأبواب وأثخنوا في أهلها القتل، حتى امتلأت الطرقات بالقتلى، وقيل أن الكاردينال خيمينيس لم يستطع ضبط دموعه وهو يشاهد بشاعة المنظر.[36]

وما إن انتهى الإسبان من وهران حتى جهّزوا حملة عسكرية بواسطة بيدرو نافارو لاحتلال بجاية، وقد غادرت هاته الحملة إسبانيا بتاريخ الأول من جانفي سنة 1510م، ووصلت بجاية يوم الـ 05 من نفس الشهر، واحتلّوها رغم مقاومة أهلها.[37]

قاد الإسبان في نفس السنة حملة لاحتلال طرابلس الغرب، وذلك بعد أن وقّعوا سلما مع ملك تلمسان الذي يدفع بموجبه الضريبة، وقد منحت قيادة الجيش إلى بيدرو نافارو حيث تكوّن الجيش من 15 ألف جندي، من بينهم 3 آلاف مقاتل من صقليّة، واختير المالطي جوليانو أبيلا دليلا للحملة نظير معرفة الجيّدة بالمدينة.[38]

غادر الأسطول مالطة بتاريخ الـ 20 جويلية سنة 1510، ووصل قبالة السواحل الطرابلسية في 24 جويلية أين نصّبت المدافع مباشرة، وبدأ قصف المدينة ثم اجتاح البحارة الاسبان شوارعها، وتمكنوا من احتلال المدينة بعد ثلاثة ساعات من المعارك الضارية، ووفق الرواية الإسبانية فقد تم تحرير 170 أسيرا مسيحيا أغلبهم من صقلية ومالطا.[39]

لكن عديد التقارير تثبت أن الاسبان قد أثخنوا القتل والسبي والأسر في أهل المدينة، بشكل يندب له الجبين، "فبعد أن كان عدد سكان مدينة طرابلس بين الـ 15,000 و20,000 نسمة،

تناقص بعد الإحتلال ليصل إلى حوالي 5000 نسمة، حيث تشير بعض التقارير إلى أنّ الاسبان قتلوا بين 3000 آلاف 5000 آلاف نسمة، واستعبدوا بين الخمسة آلاف والستة آلاف طرابلسي.[40]

وفي المقابل اختار الكثير من حكام المدن الجزائرية والمغاربية؛ دفع الضريبة السنوية، مثلما وقع مع سلطات دلس ومستغانم وشرشال وتنس والجزائر العاصمة التي منح حاكمها المحتلين قلعة البينيون الواقعة قبالة سواحل المدينة، وأما قادة تلمسان فوافقوا على دفع الضريبة يوم الـ 05 جوان سنة 1510م.[41]

وهكذا نرى أن الاحتلال الاسباني والبرتغالي ليس سوى امتداد لحروب ما يسميه الاسبان بـ "الإسترداد"، أين جعلت هاته الحروب الوازع الديني أساسا لها، وكان لهذا أثره في بشاعة الجرائم التي أوقعها المحتلون في الساكنة المحلية المعزولة حيث كانت مصحوبة بروح صليبية حادّة الحماسة.

وفي الجهة المقابلة أصبح المغرب إما تابعا وإما محتلا من طرف الأسبان، ولم تكن تمر سنة وإلا وكان يزيد معها النفوذ الاسباني في المنطقة، وعلى عكس ما كان يعيشه الاسبان فإن الانشقاق في المغرب الإسلامي قد بلغ أشده، فأصبح كرسي العرش أغلى من الحفاظ على وحدة الأمّة الإسلامية، فترى الحكام يحجون حجا مع بعض لإعلان الولاء لملك اسبانيا.

المحاضرة الثانية

إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية 1510-1519م.

1- أصل الإخوة بربروسة.

2- الأخوين بربروسة في تونس.

3- اتصال الأخوين بأهل الجزائر 1512-1516م.

4- إلحاق الجزائر بسلطة الأخوين 1516م.

5- وفاة عروج وإلحاق الجزائر بالتاج العثماني سنة 1519م.

انطلق التوسع العثماني في الجهة الغربية من البحر الأبيض المتوسط في البداية بشكل غير رسمي على يد عروج وخير الدين منذ سنة 1510م، حيث راح الأخوين ينشطان في المنطقة، وقد لعبا دورا بارزا في رد الغزو الأيبيري على المغرب العربي عامة والجزائر خاصة، فضما إليهما كلّ من جيجل ودلس وشرشال وتنس والجزائر العاصمة وقلعة بني راشد وتلمسان مركز الحكم الزياني لفترة من الزمن.

غير أنّ وفاة عروج بتلمسان سنة 1517م ألزم خير الدين وأعيان وعلماء المنطقة طلب الإنضمام إلى الباب العالي، وأرسل لهذا الغرض حسين شاوش مبعوثا عن خير الدين إلى الاستانة سنة 1518م، ولأن السلطان رأى في الأمر فرصة لتوسيع نفوذ الإمبراطورية في الجهة الغربية من البحر المتوسط، فإنّه أعطى موافقته المباشرة على الطلب الجزائري، وأرسل في السنة الموالية الراية الهاميونية بالإضافة إلى ألفين من الإنكشارية وأربعة آلاف من المتطوعين.

1- أصل الإخوة بربروسة:

فتح الأتراك جزيرة مدلي الواقعة ببحر إيجة سنة 1457،[42] ولكي يثبّتوا أقدامهم في المنطقة أمر السلطان "محمد الفاتح"، طائفة من جنده بأن تستقر نهائيا في الجزيرة[2]، وكان من بينهم الفارس يعقوب الروملي الذي تزوّج الآنسة كاتالينا إحدى بنات المدينة وهي ابنة قس أرثودوكسي يوناني[43]حسبما ذهب إليه ماتاي والأب دان[6]؛ في حين يرى سقات سوجك وغيره من المؤرخين

الأتراك الحاليين المختصين في الدراسات العثمانية إلى أنّ الإخوة بربروسة من أصل إسلامي[7]، ويقول الصلابي: "يرجع أصل الأخوين المجاهدين إلى الأتراك المسلمين"[8].

أنجبت له كاتالينا أربعة أطفال هم إسحاق وعروج وخير الدين وإلياس، وقد زاول يعقوب مهنة الفخار على الجزيرة[44]، وبعد أن ازدهرت تجارته قام بشراء سفينة لتحميل سلعته إلى الجزر القريبة، وأسند مهمة قيادتها إلى اثنين من أبنائه، هما عروج والياس في حين كلّف الخضر وإسحاق بصناعة الخزف، وقد تعمد يعقوب هذا التقسيم تنفيذا لحكمة تعلمها في الجيش تفيد بوجوب الجمع بين الاندفاع والتروي.[15]

تعرّض عروج وإلياس في أحد رحالتهم التجارية، لهجوم من قبل فرسان رودس[6]وكان هؤلاء الفرسان يمارسون أعمال السلب والنهب، في وقت لم يكن هناك قانون ينظم أعمال البحار، وكان القوي يفرض القانون الذي يريده ويرغبه على الضعيف[17]، فقتل إلياس وأخذ عروج أسيرا إلى الجزيرة. [20]

اشتغل عروج مجدفا على متن السفن القرصانية الرودسية، غير أنه استطاع الفرار في النهاية مستغلا إحدى العواصف التي اعترضت سبيل سفينتهم، أثناء نقلها بعثه من الأسرى ... المسلمين الذين افتداهم الأمير قرقود شقيق السلطان سليم الأول.

استقر عروج بعدها في مدينة أنضاليا، أين تعرف هناك على رجل اسمه "علي رايس"، ورافقه إلى مصر حيث أسندت له مهمة قيادة مراكب بحرية، مخصصة لنقل الخشب اللاّزم لصنع السفن، لكنه اصطدم بقراصنة جنوة فعاد إلى أضاليا مجددا[27].

وبعد هذا جاء عروج إلى مانيسا واجتمع بالسلطان قرقود وتسلم منه سفينتين حربتين كهدية، أين كان قرقود يفكر في تأسيس أسطول بحري (الصاعقة البحريين)، ونصحه بالذهاب إلى الجهة الغربية من البحر المتوسط، ... وأن يسير في أثر كمال رئيس، فأذعن عروج للأوامر وذهب بالسفينتين إلى مياه إيطاليا الجنوبية، وهاجم السفن الإسبانية والبندقية وعاد إلى خليج أزمير.[28]

2- الإخوة بربروسة في تونس:

كان خير الدين يتحين الفرصة المواتية لهجرة صناعة الفخار، والارتماء في أحضان المغامرة، ووجد هذه الفرصة عندما اندلعت نار الحرب بين السلطان سليم الأول وأخيه قرقود خان... أين فرّ نحو سواحل المغرب العربي والتقى هناك شقيقه عروج في جزيرة جربه التونسية[31].

أما عن تاريخ وصول الأخوين فنجد أن أغلب المراجع التركية، تذكر أنهما وصلا سواحل المغرب العربي سنة 1512م في حين يذكر البعض الأخر أن تاريخ قدومهما يرجع إلى سنة

1513، وهي نفسها سنة استدباب السلطة لسليم الأول أي بعد إعدام شقيقه قرقود، وبما أنّ عروج وخير الدين كانا مواليين للأمير الأخير، فإنّهما فرّا نحو سواحل المغرب العربي خوفا على حياتهما، وفي المقابل يذكر هايدو أن وصول الأخوين إلى سواحل تونس يعود لسنة 1504م، وأما ديغرامون فيؤكد أن الأخوين وصلا السواحل المغاربية سنة 1510م، وهو التاريخ الراجح حيث أنه من غير المعقول أن يصل الأخوين سواحل تونس سنة 1504م، ويقوما بأول محاولة لفتح بجاية سنة 1512م، ولهذا فمن المحتمل أن يكون وصولهما إلى سواحل المغرب الإسلامي بين سنة 1510-1512م.

اتفق الأخوان مع سلطان تونس الحفصي على دفع العشر *dàme* مقابل السماح لهم بدخول ميناء المملكة وشراء ما يلزم من مؤن لممارسة نشاطهما[36]، في حين يذكر خير الدين أنهما اتفقا مع السلطان على دفع الثمن من الغنائم التي يتحصلون عليها من أعمالهما البحرية وكذا بيع غنائمهما على الأسواق التونسية.[37]

وافق السلطان الحفصي على منحهما جزيرة جربه، التي جعلا منها قلعة حصينة وقاعدة لانطلاق حملاتهما البحرية التي ما فتئوا يمارسونها[38]، وبعد أيام قليلة من توقيع التحالف، تمكن عروج من أسر غليارتين تعودان للبابا جوليووس الثاني[39].

لقد أخذت هذه الحادثة صدى واسعا بعد أن أصبح البابا نفسه مهددا من قبل الرياس الأتراك، ومنذ هذه اللّحظة ازدادت شعبية الأخوين لدى الأوساط الشعبية المسلمة في شمال إفريقيا، حيث يقول دي غرامون: "خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر، تحدثت شعوب الساحل

المتوسط عن الإخوة القراصنة الذين أصبحوا مشهورين جدا[41]، ويقول ماتاي في وصفه للأخوين:"لقد بدؤوا القرصنة ضد كل الجنوب الأوربي، فنهبوا السواحل وأسروا السفن واختطفوا الرجال والنساء والأطفال، وكدسوا ثروة كبيرة حيث كانت بضع سنوات كافية ليصبحوا أكبر إرهاب ضد أوربا الساحلية[42]".

إن مثل هاته الأوصاف كانت كافية لترسم نموذجا مثاليا عن المنقذ المحتمل لمناطق المغرب العربي، فقد سمع سكان هاته المناطق عن أخبارهم وراحوا يتناقلونها بينهم بحماس وإعجاب.

لقد بالغ مخطوط الغزوات في تضخيم مآثرهم البحرية، وسارت على منوالها المصادر الأوربية في القرن السادس عشر، التي ساهمت كثيرا في صنع أسطورتهم، لكن في هذا المجال تعتبر الأساطير نفسها عنصرا مهما لا يجوز إهماله، ذلك أن المجد الذي فتح لهم طريق الحكم هو نتيجة مشتركة لمآثرهم الحقيقية، وللأصداء المضخمة التي راجت بين الجماهير[43].

3- اتصال الأخوين بأهل الجزائر 1512-1516م.

يرجع أول اتصال للأخوين بالجزائر إلى سنة 1512، عندما طلب أهالي بجاية منه المساعدة لطرد الأسبان واستعادة مدينتهم المحتلة منذ عامين؛ والحقيقة أن هذه الدعوة سوف تحدث منعرجا كبيرا في التطور السياسي للجزائر والمغرب.[45]

لبّى عروج وخير الدين دعوة حاكم قسنطينة الحفصي أبا بكر، وحاصرا المدينة عام 1512م على رأس 12 باخرة مزودة بالمدفعية وحوالي ألف تركي،[46] غير أن إصابة عروج في يده بقذيفة من المدفعية الإسبانية[50]، جعل خير الدين يعطي الأوامر برفع الحصار عن المدينة، حيث أرسل عروج إلى تونس وهو فاقد الوعي[52]الأمر الذي استلزم بتر يده.[54]

قاد عروج بعد تعافيه من الإصابة رفقة شقيقه خير الدين وابن القاضي حملة عسكرية على جيجل التي كان يحكمها الجنويين، حيث وقعت المدينة تحت سيطرتهم في أقل من يوم واحد[56]، أين بلغ عدد الأسرى الأوربيين حوالي 600 أسير.[58]

وما إن فرغ الأخوان من جيجل حتى وجها قواتهم نحو بجاية مجددا أملا في السيطرة عليها، رفقة أحمد بن القاضي الذي كان على رأس عشرين ألفا من الساكنة المحلية[59]، غير أن هاته الحملة فشلت مثل سابقتها، وذلك لتخلي السلطان الحفصي في تونس عنهما، بعد أن طلب عروج الدعم منه لنفاذ الذخيرة، وربما يعود تماطل هذا السلطان إلى تخوفه من الأخوين وما سينجر عنه سقوط بجاية تحت سيطرتهما، وفي المقابل فإنّ الكثير من القبائل الريفية انسحبت من الحصار من أجل التفرغ لزراعة حقولهم.

انسحب عروج وخير الدين في نهاية الأمر إلى جيجل التي اتخذا منها قاعدة لعملياتهما البحرية،[61]فاستغنت المدينة الفقيرة نتيجة الغنائم والعائدات البحرية[62].

4- إلحاق الجزائر بسلطة الأخوين 1516م.

راسل أعيان وساكنة الجزائر العاصمة الأخوين من أجل تحرير المدينة من قبضة الإسبان، ويذكر خير الدين في مذكراته قائلا: " لقد وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية، وكان أهمها وفد الجزائر التي كانت تمثل مركز البلاد، وكان الأهالي يشكون ظلم الأسبان ويرجون تدخلنا لإنقاذهم[67].

خرج عروج من جيجل على رأس خمسمائة بحار وثمانية عشر غليارة وثلاثين سفينة [71]باتجاه مدينة الجزائر تاركا وراءه خير الدين على جيجل في جانفي سنة 1516م[68]، أين استولى في طريقه على مدينة شرشال التي ترك فيها حامية لحراستها[72].

استقبل عروج في مدينة الجزائر بحفاوة بالغة، وأسكنه سالم التومي في قصره، حيث انطلق من هناك مباشرة في قصف قلعة البينيون، غير أنه وبعد عشرين يوما من القصف لم يستطع تحطيمها بسب ضعف مدفعيته، فعبر الناس عن خيبة أملهم، كما عبر عن ذلك سالم التومي،

غير أن عروج لم يتوانى في اغتياله، وحسب المؤرخ جوليان "فإن مؤامرة حيكت بين الثعالبة والأسبان وأهل الجزائر للتخلص من عروج وقراصنته ففرض عروج سيطرته بالقوّة مدعوما بالأتراك وأهالي جيجل"[74].

وهكذا ساء موقف عروج، وبدأت صورته المثاليه التي تغنت بها الساكنة تتراجع تدريجيا، خاصة مع الفساد الذي بثّه الجنود الأتراك في المدينة والأرباض المحيطة بها، مما ضاعف سخط السكان ضد عروج، وراحوا يفكرون في الاستنجاد بالأسبان عن طريق حاكم معقل الجزيرة المقابلة لمدينة الجزائر، الذي أرسل وفدا إلى إسبانيا يطلع الملك بالشكوى الجزائرية. [75]

وافق الكاردينال كسيميناس على الطلب الجزائري، وأرسل في خريف سنة 1516م، قوة بحرية مكونة من ثلاثين سفينة، وثلاثة آلاف جندي، تحت قيادة دييغوا دو فيرا، حيث رسى الأسطول الإسباني على الجهة الشرقية من السواحل الجزائرية بتاريخ في 30 سبتمبر سنة 1516م، وتم الإنزال في اليوم الموالي قرب واد مغاسل.[79]

لم ينتظر عروج كثيرا وخرج للقاء الأسبان مستغلا سوء الأحوال الجوية والفوضى التي كان يعيشها الجيش الإسباني، فأثخن فيهم القتل[80]، رغم الدعم الذي أرسله قائد قلعة البنيون[84].

غير أنّ مشاكل عروج في المنطقة لم تنتهي بمجرد هزيمة الحملة الإسبانية حيث انضم عرب متيجة إلى حميدة العبد ملك تنس وأحد أعداء بربروسة، الذي كوّن جيشا من ثمانية آلاف جندي

وسار به نحو الجزائر العاصمة يهدف إلى استعادتها من يد الأتراك[87]، فاستدعى عروج خير الدين من دلس وعهد إليه حكم المدينة في غيابه، في حين أخذ عروج رفقته ما يقارب العشرين من أعيان ووجهاء الجزائر العاصمة رهائنا خوفا من التمرد[7]، وخرج لملاقاة حميدة العبد على رأس 1500 تركي فقط.[88]

تمكن من هزيمة عدوه الذي فرّ إلى الجبال، ودخل عروج تنس في جوان سنة 1517م، وهناك وصلته وفود من مدينة تلمسان تستغيث به ضد سلطانها " أبو حمو الثالث " الذي تحالف مع الأسبان ضد سلطانهم الشرعي أبو زيان[89].

5- وفاة عروج وإلحاق الجزائر بالتاج العثماني سنة 1519م:

استولى الأخوين على المدية وملیانة ودلس ونواحيها[90]، وفي 11 محرم 923هـ/ الموافق ل3 شباط 1517م، تمكن السلطان سليم الأول من احتلال مصر فأرسل له الريس عروج رفقة الريس مصلح الدين الهدايا والتحف الثمينة تبريكا له بفتح مصر، وعرض عليه مراسيم الطاعة، وأعلم السلطان سليم الأول بما حققه من انتصارات هو ورفاقه فرد عليه السلطان بجواب تقدير وإعجاب وتقبل عرض عروج بكل مميونية[93].

قاد عروج حملة عسكرية نحو تلمسان مستغلا الصراع الذي نشب بين أفراد الأسرة الزيانية الحاكمة، "ففتح أولا قلعة بني راشد"، ونصّب عليها شقيقه إسحاق حاكما رفقة 200 جندي مسلحين بالبنادق[98].

وما إن بلغ نبأ سير بربروسة إلى تلمسان حتى فرّ أبو حمو الثالث إلى فاس، ثم إلى الحامية الاسبانية بوهران، فقام أهل تلمسان بإخراج الأمير أبا زيان من السجن وتعيينه حاكما عليهم، كما استقبلوا عروج استقبال الفاتحين، إلا أن الجند الأتراك أغلظوا في معاملة الساكنة المحليّة ... مما جعل الجميع يندم على الاستنجاد بالأتراك[100]، حتى أنّ أبا رأس نقل عن القمع الذي مارسه الأتراك دعاء ابن ملوكة على عرّوج بالموت[101].

استقر عروج بالمشور[102] واحتل المدينة بالقوة، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد قام عرّوج بإغراق سبعين أميرا زيانيا في أحد الصهاريج[102]، واغتال أميرهم أبا زيان الذي طلب منه الاعتدال في التعامل مع أهل تلمسان، ولتأمين جنبه من الهجمات الإسبانية المحتملة، أقام عروج السلم مع حاكم فاس، وفي نفس الوقت قام بترميم جميع الحصون الموجودة بالمدينة[103].

كان أبو حموا قد سافر مع قائد وهران إلى إسبانيا، لحضور مراسيم حفل تنصيب شارلكان إمبراطورا خلفا للملك فرديناند، حيث عاد بعدها الاثنان رفقة حوالي عشرة آلاف جندي إلى وهران

بداية من سنة 1518م، وبفضل هذا الدعم تمكن أبو حمو من قتل إسحاق والقضاء على الحامية التي تركها عروج في قلعة بني راشد[106].

سار القائد الإسباني باتجاه تلمسان على رأس جيش مكوّن من 11.500 جندي وخمسة وثلاثين ألفا من أتباع أبو حمو[107]، حيث حاصر الأسبان المدينة ستة أشهر كاملة[108]، ولمّا حلّ عيد الفطر اغتنم السكان هذه الفرصة، وطلبوا من عروج أن يأذن لهم بالدخول إلى المشور لأداء صلاة العيد، فأذن لهم بذلك غير أنهم وبمجرد عبور أسوار المشوار حتى أخرجوا أسلحتهم المخفية تحت البرانيس ونزلوا في الأتراك ضربا وتقتيلا، فلم ينج إلا عروج وقليل من صحبه الذين اختفوا في معبر سري، وقرّروا الانسحاب على أمل اللّحاق بساحل البحر، أين سيجدون هناك في انتظارهم خير الدين[109].

قام الاسبان بملاحقة عروج أين التقى الطرفان مساء اليوم الموالي بين سيدي موسى ومعبر نهر ريو دو سلادو"*Rio Salado*"، ونجح عروج في اجتياز الطرف الآخر من النهر، ومن هناك أخذ في مراقبة المعركة اليائسة التي كانت مؤخرة جيشه تخوضها بهدف تغطية انسحابه، على أن التأثر البالغ بالبطولة والإخلاص اللذين أبداهما رفاقه دفعاه للإسراع عائدا إلى المعركة، وانضم إلى المدافعين عن رأس الجسر، وكان يدرك جيدا أن الوضع ميئوس منه، وبعد بضع ساعات إذ بالمنتصرين يكتشفون فوق أرض المعركة جثة عروج وقد تشوهت تماما[112].

أرسل رأس عروج إلى اسبانيا في حين سلّمت ثيابه التي كانت من قطيفة حمراء مزركشة بالذهب إلى كنيسة القديس جيروم بقرطبة، فصنع رجال الدين منها شعارا يسمى "شارة بربروس".[113]

أيقن خير الدين بعد وفاة عروج في تلمسان أن الحرب ضد الإسبان دون حماية قوة عظمى يعتبر مجرد حرب عصابات لا يمكن أن تؤدي الغرض، "فقام باستشارة أهل البلد وعرض عليهم فكرة الانضواء تحت راية الدولة العثمانية، حيث رحب أعيان المدينة وأهلها بالفكرة"[45] وهكذا أرسل شاوش حسين إلى الباب العالي يطلب منه إلحاق الجزائر بالإمبراطورية العثمانية، فوافق السلطان على المقترح وأرسل الشارة الهاميونية وأربعة آلاف متطوع بالإضافة إلى ألفين من الإنكشارية.

المحاضرة الثالثة

عهد البايلربايات 1519-1587م

1- انتصاب حكم البايلربايات في الجزائر 1519-1540م.

2- حملة شارلكان على الجزائر 1541م.

3- تطور نظام البايلربايات 1543-1587م.

4- علج علي آخر الريّاس العظماء 1568-1587م.

5- نهاية عهد البايلربايات 1580-1587م.

6- خصائص ومميزات عهد البايلربايات.

يعتبر عهد البايلربايات أول مراحل الحكم العثماني في الجزائر (1519-1587م)، حيث حكم خلالها البايلرباي الجزائر (أمير أمراء)، فبعد "مقتل عروج في الواد المالح سنة 1517م"[46]، أيقن خير الدين أن مقاومة توسع الإمبراطورية الإسبانية في ظل الانهيار الذي كانت تشهده دويلات المغرب الإسلامي غير ممكن خاصة وأن الفوارق العسكرية كبيرة بين جيشه والجيش الاسباني، الأمر الذي جعله يميل بجنبه نحو السلطان العثماني ويطلب الانضواء تحت الراية العثمانية سنة 1518م.

والبايلرباي هو لقب يعني باي البايات أو أمير الأمراء حيث شاع هذا المصطلح في الفترة الوسيطة والحديثة ... واستخدمه السلاجقة والدولة الإلخانية خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1252-1335م، ثمّ الدولة الصفوية، كما استخدمه أيضا القلات في الدولة الباكستانية ولاحقا الدولة العثمانية وذلك بدءا من القرن 14م وحتى أواسط القرن التاسع عشر[47]، وأما نظام البايلربايات فهو حكم يسيطر فيه البايلرباي على مقاليد السياسية والاقتصادية والإجتماعية، كما أن للبايلرباي القدرة على تعيين وإقالة العديد من رجال الدولة والمشايخ الخاضعين لسلطته.

1- انتصاب حكم البايلربايات في الجزائر 1519-1540م:

كان أول بايلرباي نصّب على الجزائر هو خير الدين بربروس سنة 1519م، حيث لعب دورا بارزا في تثبيت حكم البايلربايات في المنطقة، معتمدا في ذلك على تقوية رجال البحر العثمانيين، وقدد استطاعت طائفة الرياس بفضل جهوده الحثيثة الحفاظ على سلطتها وحماية مصالحها، وبذلك استمر حكم البايلرباي في الجزائر حتى أواخر القرن السادس عشر.

تمكن خير الدين في بداية عهدته من رد الحملة الإسبانية على الجزائر سنة 1518م، تحت قيادة هوغو دي مونكادا، وهكذا تفرغ للقضاء على مملكة كوكو وقائدها ابن القاضي، بسبب تحالف الأخير مع الحفصيين، ويذهب فريق آخر من المؤرخين إلى أن توتر العلاقة بين الطرفين مردّها إلى عدم تقديم "ابن القاضي الدعم اللازم لعروج في حملته على تلمسان الأمر الذي أدى إلى مقتله".[48]

جهّز خير الدين حملة عسكرية تمكن بواسطتها من ملاحقة أحمد ابن القاضي حتى القل، غير أن الأخير استطاع الفرار نحو عنابة التابعة للحفصيين، حيث لقي هناك كل الدعم من الملك الحفصي، "الذي أرسل له جيشا وأوكل له مهمة قيادته ضد الاتراك، أين التقى الطرفان بالقرب من سهل يسّر، وهناك ألحق ابن القاضي هزيمة نكراء بخير الدين، ما جعله مجبرا على الفرار نحو جيجل، وإرسال تعليمات صارمة إلى أتباعه المتواجدين في العاصمة من أجل اللحاق به، في الوقت الذي أكمل ابن القاضي مسيرته نحو الجزائر العاصمة، فاستولى في البداية على متيجة ليدخل بعدها الجزائر العاصمة سنة 1520م".[49]

والحقيقة أنّ ابن القاضي لم يكن أحسن من الأتراك في تعامله مع أهل الجزائر العاصمة حيث استقر في المدينة خمس سنوات كاملة أي بين سنتي 1520-1525م، وفي المقابل تمكن خير الدين من التحالف مع أمير بني عباس عدو ابن القاضي الأول، ليبدأ الأتراك انطلاقا من جيجل في التوسع نحو الشرق الجزائري، أين استطاعوا إلحاق قسنطينة سنة 1520م ، والقل سنة 1522م، وكذا عنابة سنة 1521م.[50]

كان الوضع العام قد خلى لخير بشكل مناسب لأجل استعادة مدينة الجزائر، فبالإضافة إلى إخضاعه العديد من المناطق التي كانت تتبع لابن القاضي، فإن خير الدين قد تمكن من اكتساب شهرة واسعة في الأوساط الشعبية نتيجة حملاته البحرية الناجحة على السواحل المسيحية.

جهّز بربروسة حملة عسكرية ضد ابن القاضي، والتقى الجمعان في منطقة معبر أولاد بوغدورة، حيث هزم ابن القاضي هزيمة شنعاء، انسحب على إثرها نحو بني عائشة حيث اندلعت هناك المعارك بين الجانبين في اليوم الموالي، أين توفي في هاته المعركة أحمد ابن القاضي نفسه.[51]

استقر خير الدين مجددا في الجزائر العاصمة سنة 1525م، حيث شرع في تقوية أسطوله البحري، ليبلغ عدد قطعه "36 سفينة"[52]، خاصة مع وجود "رياس أكفاء إلى جانبه أمثال: "الرايس شعبان وحارة الدين رايس وصالح رايس الذي سيصبح لاحقا أحد حكام الجزائر، حيث غزى الأسطول الجزائري سواحل فالنسيا وإسبانيا".[53]

لقد تزامن نشاط بربروس الخارجي مع العمل على الجبهة الداخلية، فتمكن من استعادة "قلعة البينيون من الإسبان سنة 1529م، وهزيمة أندري دوريا في شرشال سنة 1531م"[54].

أدى النجاح الباهر الذي حققه خير الدين إلىتنصيبه قائدا عاما على الأسطول الهاميوني سنة 1533م، حيث قاد في نفس السنة حملة عسكرية تمكن من خلالها فتح تونس واستعادتها من يد الإسبان.

عيّن بربروس بعد مغادرته الجزائر حسن آغا حاكما على الجزائر، وحسن آغا هذا هو رجل سرديني أسر صغيرا من قبل خير الدين في احد حملاته على سردينيا وجلب إلى الجزائر، حيث "تربي وترعرع في بيت الأخير كأحد أبنائه"، ويصف هايدو حكمه قائلا: "إن الناس لا زالوا يذكرون حسن آغا ويقولون إنّهم لم يروا حاكما أعدل منه".[55]

لعب حسن آغا دورا بارزا في إعادة بعث نشاط البحرية الجزائرية، حتى أن بلايفير يؤكد "أن صدى هاته الحملات وتأثيرها يعادل أو يتجاوز حتى تلك الحملات التي قادها خير الدين نفسه، ففي سنة 1539م هاجم السواحل الإسبانية على رأس جيش بلغ 1300 رايس، فاستولى على عديد الغنائم والأسرى".

وعموما فقد شهد حكمه استقرارا وأمنا خلال الستة سنوات اللاحقة إلى غاية حملة شارلكان على الجزائر سنة 1541م.

2- حملة شارلكان على الجزائر 1541م:

قاد شارلكان حملة عسكرية على الجزائر سنة 1541م، حيث ادعى الأسبان أن الحملة جاءت لإيقاف المضايقات الجزائرية المتكررة على السواحل الإسبانية، غير أن السبب الحقيقي لهاته الحملة مردّه إلى الهزمية الشنعاء التي تلقاها الأسبان في معركة بروزة سنة 1538م، حيث يؤكد خير الدين ذلك بقوله: "«بعد معركة بروزةprévisa... جن جنون الأسبان، فكان أن صار كارلوس يتصرف بطريقة يائسة تدعو للسخرية، وراسلني يطلب منّي أنأتخلى عن خدمة السلطان سليمان، على أن يجعلني ملكا وحيدا على كل البلاد الإفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي".[56]

أقلع الأسطول الإسباني من قرطاجنّة بتاريخ الـ 19 أكتوبر سنة 1541م، حيث تكوّن من 516 سفينة شراعية و65 سفينة كبيرة من نوع الغليارة، عليها إثنا عشر ألف بحار وثلاثة وعشرين ألف جندي، ورافق هاته الحملة متطوعون من النبلاء الإسبان والألمان والإيطاليون، حتى أن البابا نفسه أرسل ابن شقيقه كولونا ليرافق هاته الحملة.[57]

وفي الجهة المقابلة لم يكن جيش المدافعين تحت قيادة حسن آغا يتكوّن سوى من 800 تركي، وحوالي الـ 500 أو 600 أندلسي أغلبهم من المبعدين من غرناطة[58]، غير أنّ سوء الحظّ قد رافق هاته الحملة في كلّ مراحلها، حيث أدى هبوب العاصفة إلى تحطيم أغلب الأسطول الإسباني، حتى "أن شارلكان شوهد وهو يبكي لأول مرّة في حياته نتيجة الخسائر الضخمة التي لحقت بجيشه"[59].

كانت الخسائر البشرية والماديّة مكلفة جدا على الطرف الإسباني، أين فقد الأسبان مائتي سفينة، وأكثر من 12 ألفا بين قتيل وجريح، في الوقت الذي استطاع الجزائريون انتشال عدد هائل من الغنائم تمثّل في رفع الكثير من السفن الصغيرة وبعض الغليارات الكبيرة، وخمسمائة قطعة مدفعية مصنوعة من البرونز، ومقدار كبير من الأسلحة والتجهيزات الحربية، بالإضافة إلى كمّ هائل من الأسرى، حتى أن البعض يذكر على سبيل المزاح "بأن الفرد الجزائري كان يمكنه شراء أسير مقابل بصلة".[60]

3- تطور نظام البايلربايات 1543-1587م:

تنامى التدخل الفرنسي في الباب العالي منذ توقيع معاهدة الإمتيازات بين الفريقين سنة 1535م، حيث رأى السلطان العثماني في دعم فرنسا مانعا لأي اتحاد مسيحي يمكن أن يتشكّل ضد الامبراطورية.

والحقيقة أن هذا النفوذ الفرنسي كان ذا آثار كارثية على الجزائر ولو تدريجيا، "ففي سنة 1544م عرض السفير الفرنسي على حسن باشا منصب قائد عام على الأسطول الفرنسي بشرط أن يهاجم وهران وإسبانيا، غير أن حسن باشا رفض اقتراح السفير، الأمر الذي جعل الأخير يخطر السلطان العثماني بأن حسن باشا يريد الإستقلال عن الباب العالي، فطلب السلطان من حسن باشا القدوم إلى الإستانة على جناح السرعة، وعزل مباشرة"[61]، أين خلفه على الحكم القائد السفاح.

ولعلّ ما يثبت إنصات الباب العالي لوسوسات السفراء الفرنسيين، هو وضع "درغوث باشا تحت تصرف الملك الفرنسي، وقد لعب درغوث دورا بارزا في الحرب الفرنسية الإسبانية، وذلك بهجومه المتواصل على الممتلكات الإسبانية بين سنتي 1547-1549م".[62]

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد حيث طلب الملك الفرنسي صراحة من السلطان العثماني، التنازل له عن الجزائر سنة 1571م، "مدعيا أن السكان الجزائريين قد راسلوه يطلبون منه تولية ولي عهد فرنسي عليهم، غير أن السلطان أعلم السفير الفرنسي أن الجزائريين يكرهون الفرنسيين ولا يطيقونهم".[63]

عيّن صالح رايس حاكما على الجزائر خلفا للسفاح، وكان أبرز ما ميّز عهده هو استرجاع بجاية من يد الإسبان سنة 1555م.[64]

كان لهذا الإنتصار وقعه البالغ على صالح رايس، حيث بلغت أحلامه عنان السماء وبدأ يفكّر جديّا في استعادة وهران من يد الأسبان سنة 1556م، غير أن الطاعون الذي ضرب فخذيه جعله غير قيادة على قيادة الجيش، الذي لم يكن من النوع الذي يصبر على حاكمه حيث اجتمع قادته وعيّنوا بدلا عنه حسن قورصو خلفا.[65]

عاد حسن باشا مجددا إلى الجزائر وعيّن حاكما على البلد، غير أنّه سرعان ما تم عزله بسبب انقلاب الإنكشارية عليه، بالإضافة إلى المخاوف التي حامت حوله، لمحاولته رفع عدد المجندين من الساكنة المحليّة في الجيش الجزائري، ونتيجة لهذا كبّلته الإنكشارية في الأغلال وأرسلته إلى القسطنطينة سنة 1561م، حيث ألحقت به تهمة محاولة الإستقلال عن الباب العالي، غير أن حسن آغا تمكن من إقناع ديوان السلطان والعودة إلى الجزائر مجددا سنة 1562م.[66]

عيّن محمد باشا حاكما على الجزائر سنة 1567م، وفي عهده ضربت المجاعة الجزائر، غير أنه استطاع أن يتغلب عليها، ويألّف بين قلوب الإنكشارية وطائفة الريّاس ولو بشكل مؤقت، وأنشأ برجا يدعى "برج محمد باشا"، حيث كلّف ببنائه رجلا صقليّا يدعى مصطفى.

ثار أهل قسنطينة على الحامية التركية الموجودة في المدينة سنة 1567م[67]، ويذكر هايدو أن سبب الانتفاضة يرجع إلى أن الباي التركي انتهك "عرض أحد بنات المدينة الجميلات"، وكان من النتائجهذا الفعل مقتل أربعة أو خمسة جنود أتراك على يد أهل المدينة.[68]

جهز محمد باشا حملة على مدينة قسنطينة، قمع بواسطتها الثوار، حتى أن البعض يؤكد بأنّ "محمد باشا قد سبى النساء والأطفال وباعهم في مزاد علني"، غير أن بعض الناجين تمكنوا من الفرار نحو طرابلس الغرب، ومن هناك اتجهوا نحو إسطنبول وأعلموا السلطان العثماني بما فعله محمد باشا في عيالهم وأهل البلد، فجاء "الأمر بتعيين علج علي حاكما على الجزائر سنة 1568م".[69]

4- علج علي آخر الريّاس العظماء 1568-1587م.

لعل أحد أشهر الحكام المهتدين الذين حكموا الجزائر هو علج علي ذو الأصول الإيطالية، الذي بلغت شهرته العنان، حيثغيّر اسمه من جيوفاني ديوجيدجي غالليتي ليصبح"علي".[70]

أسر علج علي من طرف الرايس أحمد سنة 1536م، واشتغل في البداية مجدّفا على السفن الجزائرية، ليترقى تدريجيا ويصبح أحد شركاء درغوث باشا في عملياته البحرية على السواحل الأوربية، ثم حاكما على جزيرة ساموس، فحاكما على الجزائر سنة 1568م، ونظير قدرته الفائقة في إنقاذ الجناح الأيمن خلال معركة ليبانتو الشهيرة عيّنه السلطان العثماني قائدا

أعلى للقوات العثمانية سنة 1571م[71]، ويذكر ستانلي لان بول بعد وفاة علج علي قائلا: "لقد كان آخر قرصان عظيم... يموت في الجزائر".[72]

وفي عهده استقرت الأوضاع داخليا بفضل قدرته البالغة في مهادنة القبائل الجزائرية، وبنى برج باب الواد، وأنشأ التحصينات محيطابها مدينة الجزائر،[73] وأما على الصعيد الخارجي فقد ساهم علج علي مساهمة بالغة في دعم "ثورة جبال البشرات التي اندلعت في غرناطة سنة 1569م، أين أرسل في بداية جانفي من نفس السنة خمس سفن جزائرية محمّلة بالجنود والذخيرة والمؤن، كما بعث في أكتوبر أربعة آلاف جندي ومئات من الإنكشارية كقادة للإنتفاضة رفقة 32 سفينة كاملة، وفي سنة 1570م أرسل جنودا آخرين لدعم إخوانه الثوار، حتى أن علج علي تهيأ بنفسه لمرافقة هاته البعثة، لولا وصول أخبار تفيد بأن دون خوان دي أوستريا قد شرع في التحضير لمعركة ليبانتو".[74]

5- نهاية عهد البايلربايات 1580-1587م:

نصّب أحمد أعراب حاكما على الجزائر، بسبب تعيين علج علي قائدا عاما على الأسطول العثماني سنة 1572م، وقد شهدت فترة حكمه انتشار "الطاعون الذي قتل ثلث سكان الجزائر العاصمة"[75]، والحقيقة أن فترة تولي أحمد السلطة لم تدم طويلا بسبب "الخلاف الذي شبّ بينه وبين مامي أرناؤوط، الذي عزله ونصّب مكانه مراد رايس".

لم يتقبل السلطان العثماني هذا التعيين، وأرسل إلى الجزائر القائد رمضان سنة 1574م "وهو من أصل سرديني"[76]، نشبت في عهده خلافات مع المغرب الأقصى، وذلك للتحالف الذي نهجه المتوكل مع الأسبان، أين خرج القائد "رمضان نحو فاس على رأس ستة آلاف فارس شهر ديسمبر سنة 1575م وهو منتشي بالانتصار الذي حققه العثمانيون في تونس سنة 1574م واستعادتها من يد الأسبان، فتمكن من تنصيب مولاي عبد الله على عرش المغرب ورجع قافلا إلى الجزائر سنة 1576م".[77]

خلف القائد رمضان على عرش الجزائر حسن فينيزيانو ، وفي عهده تزايد نفوذ الإنكشارية، وأصبح تدخلهم في الشؤون السياسية جليّا ، حيث "وقعوا عريضة أرسلت إلى السلطان العثماني سنة 1580م، تحصي مساوئ إدارة فينيزيانو، وحيث لم يعارض السلطان العثماني اقتراحهم وأرسل جعفر باشا حاكما جديدا على الجزائر" والحقيقة أن جعفر باشا هذا كان أحد محضيي السلطان، حيث عيّنه في بداية مسيرته حاكما على هنغاريا وبورجيا.[78]

لم ترضى الإنكشارية على جعفر باشا هو الآخر، وراحت تدبّر ضدّه الدسائس لقتله، حيث كان الهدف من كل هذا تعيين آغا الإنكشارية بن دالي حاكما على الجزائر، غير أن جعفر باشا تمكن من قمع هاته الانتفاضة، وقطع رؤوس المتآمرين يوم الـ 30 أبريل سنة 1581م.[79]

وصل القابودان باشا علج علي إلى مدينة الجزائر على رأس ستين بارجة حربية، وذلك بعد شهر من هاته الحادثة، حيث أعطى أوامره بتنظيم الجيش من أجل قيادة حملة عسكرية على المغرب، إلاّ أن الإنكشارية قابلت طلبه بالرفض، وسارعت إلى إرسال المدعو سيدي بوتكة إلى السلطان الذي أكد له عزم علج علي على الإستقلال بالمغرب العربي لنفسه، وما كان من السلطان

العثماني إلاّ أن أذعن لطلب الإنكشارية مرّة أخرى وطالب علج علي بالتخلي عن مشروعه، والتوجه مباشرة نحو شبة الجزيرة العربية للقضاء على الثورة التي نشبت ضد الأتراك في المنطقة.[80]

نصّب السلطان العثماني القائد رمضان للمرة الثانية واليا على الجزائر خلفا لجعفر باشا، غير أن طائفة الرياس سرعان ما ثارت ضده، بسبب إرجاع سفينين فرنسيتن، كان قد أسرهما أحد الرياس المدعو مراد، ففر القائد رمضان نحو طرابلس الغرب، أين توفي في العام الموالي في إحدى المعارك ضد قائد القيروان[81].

عيّن حسن فينيزيانو للمرة الثانية حاكما على الجزائر بتوصية من علج علي، حيث استمر في منصبه لغاية سنة 1588م، أين عيّن قابودان باشا على الأسطول العثاني خلفا لعلج علي الذي توفي سنة 1587م.[82]

وهكذا انتهى عصر البايلربايات بوفاة علج علي سنة 1587م، وبدأ عهد جديد سيحكم فيه الباشاوات، ويؤدي ذلك إلى انفصال الجزائر عن الباب العالي تدريجيا من ناحية اتخاذ بعض القرارات وحتى تعيين الباشاوات وعقد المعاهدات مع الدول الأوربية، أين استقلت فيه الأقلية الحاكمة لنفسها بالحكم والتدبير، وعزل العامة.

6- خصائص ومميزات عهد البايلربايات:

تميّز عهد البايلربايات بالآتي:

-أرسل السلطان العثماني إلى الجزائر ألفين من الإنكشارية سنة 1519م، وأربعة آلاف متطوع تركي.[83]

-كانت الجزائر قلب الحكم العثماني في المغرب العربي، حيث تخضع لسلطتها كل من تونس وطرابلس الغرب.

- تزامن حكم البايلربايات مع عصر الحروب الكبرى بين الدولتين العثمانية والإسبانية، حيث قاد الأسطول العثماني في مرّات عديدة حكام جزائريون، ففي سنة 1538م استطاع خير الدين القائد الأعلى للأسطول الهاميوني أن يهزم القرصان الكبير أنديري دوريا في معركة بروزة، وفي سنة 1571م وأثناء معركة ليبانتو استطاع حاكم الجزائر علج علي إنقاذ الجبهة اليمنى والعودة إلى الاستانة، ليعيّن بعدها قائدا عاما على الأسطول الهاميوني.[84]

-استطاع الجزائريون خلال هاته الفترة استعادة الكثير من الثغور التي كانت في حوزة الإحتلال الإسباني، فاستعادوا قلعة البينيون سنة 1529م وتلمسان سنة 1554م، وبجاية سنة 1555م، وطرابلس الغرب (ليبيا حاليا) سنة 1551م، وتونس سنة 1574م، في حين بقي كلّ من المرسى الكبير ووهران تحت سيطرة الإحتلال الإسباني وذلك إلى غاية سنة 1792م.

- شهدت حكم البايلربايات غارات "صليبية" إسبانية مدعمة من قبل البابا الذي طلب من المسيحيين مرافقة شارل الخامس في عمليات احتلاله للجزائر، "واعدا كلّ من رافق حملاته أن

يمسح خطاياه وأن تكون الجنة موعدا لكلّ من مات وهو يقاتل الكفّار.[85]فمثلا: هاجم سنة 1519م هيغو دي مونكادا الجزائر حيث رافقه في هاته الحملة آلاف المتطوعين الذين وعدوا بالجنّة.[86]

كما قاد شارل الخامس حملة ضد الجزائر سنة 1541م على رأس قوات تكونت من 516 سفينة من نوع الغاليه والغليوطات، وعلى متنها 40.000 مقاتل[219]، "وقد رافق الحملة أيضا رجال مع عائلاتهم بهدف الاستقرار بالمدينة بعد احتلالها واستيطانها كما حدث مع العالم الجديد، لكن الحملة فشلت نتيجة لسوء الأحوال الجويّة التي أغرقت أغلب الأسطول الإسباني".[87]

– استدعى سنة 1543م الملك الفرنسي فرانسيس الأول خير الدين حاكم الجزائر إلى مارسيليا مع أسطوله المكوّن من 150 سفينة، وقد علّق ستانلي لان بول قائلا: "لقد أنزلت راية العذراء لتعوّض بالهلال الإسلامي"، وأما بالنسبة لأحد قواد البحرية الفرنسية فقد اعتبر هذا التحالف "اتحادا إلحاديا".

أقلع أسطول خير الدين في جويلية من ذات السنة باتجاه خليج ليون أين استقبل بحفاوة من قبل دوق إنجيان فرانسوا بوربون القائد الأعلى للقوات البحرية الفرنسية، ورغم المعارضة الداخلية التي تعرض لها الملك الفرنسي بعد تحالفه مع "الهراقطة المسلمين" على حد وصف المعارضين، إلا أنّه قرر المضيّ قدما وطلب من خير الدين قصف نيس، لكن الحملة لم تقدر لها النجاح، وعادت بعدها البحرية الجزائرية لتستقر في ميناء طولون طيلة الشتاء، حيث كلّفت الحملة الجزائرية الخزينة الفرنسية أموالا طائلة، "فبالاضافة لدفع الفرنسيين أجرة البحارة الجزائريين

فإنهم أجبروا على تحرير 400 ملسم من الغاليارات الفرنسية، كما أن خير الدين حصل على الكثير من الهدايا.[88]

– تميّز عهد البايلربايات بالاستقرار السياسي، حيث شهدت الجزائر تكاتفا بين أهل البلد والسلطة التركية الحاكمة، خاصة مع استمرار عمليات التحرير التي كان يقودها البايلربايات في المناطق الجزائرية.

– سيطر الرياس على الحكم، وهكذا شهدت الفترة حكم رجال البحرية للجزائر، ويؤكد الكثير من المورخين أنّ الريّاس كانوا أكثر قربا من السكان المحليّين، إذ كان يحق لعامة الجزائريين المشاركة بأسهم عند خروج الأسطول الجزائري إلى البحر،شرط أن يتحصل على فوائد محددة بعد عودة الأسطول محمّلا بالغنائم؛ حتى أن النساء الجزائريات كن يضعن ذهبهن أملا في الاستفادة من تلك الفوائد.[89]

– كان للبايلراباي صلاحيات غير محدود في الحكم، وله الحق في اعتلاء العرش دون تحديد فترة الحكم إلا في الحالات التي يتجاوز فيها الحاكم صلاحيات قد تهدد الوجود العثماني داخل المنطقة، فقد عزل حسن باشا ابن خير الدين مرتين عن حكم الجزائر[90] لمشاكل مع الجارة المغرب حسب الرواية العثمانية، وفي تقارير أخرى أنّ "القنصل الفرنسي في الجزائر هو الذي وسوس للسلطان العثماني حول سلوك حسن باشا وإساءته للفرنسيين، ما أدى في النهاية إلى عزله عن الحكم."[91]

-اعتبرت اللغة التركية لغة السلطة، والمراسلات والإدارة العثمانية في الجزائر، في الوقت الذي بقيت اللغة العربية لغة العلماء والقضاء المالكي، والتدريس، حيث اعتمدت في المساجد، والكتاتيب والزوايا.[92]

- تميّزت الحياة الثقافية خلال هاته الفترة بالجمود الفكري، حيث لم يظهر أحد من المفسّرين ولا المصلحين طيلة سبعين سنة كاملة.[93]

- قام حسن باشا بتقسيم الجزائر إلى أربعة بايلكات يحكم كل منها باي يقوم بتعيينه حاكم الجزائر:[94]

1-دار السلطان: توجد في الجزائر العاصمة، وهي مركز حكم البايلرباي، وتمتد من دلس شرقا إلى مدينة شرشال غربا، ويحدها من الجنوب بايلك التيطري.

2- بايلك التيطري: عاصمته المدية، يحده من الشمال سهل متيجة، والصحراء جنوبا.

3- بايلك الغرب: عاصمته مازونة ثم معسكر سنة 1710م، لينتقل في النهاية إلى وهران وذلك بعد استعادتهامن قبل الباي عثمان سنة 1792م، أين يحده غربا بايلك التيطري وشمالا سهل متيجة وجنوبا الصحراء.

4- بايلك الشرق: عاصمته قسنطينة، ويحده من الشرق تونس، وشمال البحر المتوسط وجنوبا الصحراء، وغربا بلاد القبائل.

المحاضرة الرابعة

عهد الباشوات 1587-1659م

1- الباشاوات الأوائل 1587-1604م.

2- ثورة الكراغلة والساكنة المحلية 1596م.

3- الحملة الصليبية الإسبانية على الجزائر سنة 1601م.

4- انتعاش النشاط البحري والاقتصادي الجزائري 1608-1632م.

5- انهيار نظام الباشاوات 1633-1659م.

6- سقوط الباشوات 1645-1659م.

نتج عن نهاية عهد البايلرباي بزوغ عصر جديد سميّ "الباشاوات" حيث مُنحت الولايات العثمانية الثلاثة (الجزائر، تونس، وطرابلس الغرب) استقلالا ذاتيا دون الحاجة في أن تتمركز تحت سلطة الجزائر، وذلك خوفا من انقلاب يمكن أن يحدثه البايلرباي علج علي، ما قد يؤدي إلى انعكاسات خطيرة على الوجود العثماني في المغرب العربي، كما تقرر أيضا نزع لقب بايلرباي الذي كان لقبا بحريا وعوّض بلقب الباشا، تجنبا لأيّ صراع يمكن أن ينشأ بين الإنكشارية ورجال البحرية.

غير أن ديغرامون "يعتبر أن خشية البلاط العثماني من تمركز السلطة في يد الجزائريين باعتبارهم تهديدا مباشرا للسيطرة العثمانية، يعتبر سببا غير مبرر حيث لم يستوعب صانعوا القرار داخل قصر السلطان أن ما كان يمكن أن يكون تهديدا في المقاطعات الأوربية الخاضعة لسلطة العثمانيين، هو لا حدث بالنسبة للمغرب العربي، ذلك أن قادة الجزائر كانوا في الغالب يستمدون قوتهم من الباب العالي نفسه، بالإضافة إلى أن الساكنة المحلية كانت طوال الوقت إما ضعيفة أو مستضعفة".[95]

وفعلا فقد أدى فصل ولايتي طرابلس الغرب وتونس عن الجزائر إلى سيطرة الإنكشارية على الحكم، ما نتج عنه اتساع الهوة بشكل جلي بين السلطة الحاكمة والعامة، وعزل طائفة الرياس ولو بشكل مؤقت، والحق أن رجال البحر طالما كانوا قريبين من أهل الجزائر، بسبب كرمهم وتوزيع الكثير من موارد الغنائم القادمة من البحر، وذلك على عكس الإنكشارية الذين ارتبطوا في المخيال الشعبي دوما "بالضريبة والمحلّة".

يتولى الباشا الحكم ثلاث سنوات فقط، على عكس البايلرباي الذي لم يحدد زمن حكمه بتاريخ معيّن، حيث يرسل من الباب العالي، ورغم أنّ الباشا كان يمكن أن يكون قويّا نظريا، غير أن

سلطته في الواقع كانت محدودة بشكل شبه كلي، بسبب سلطة الإنكشارية والديوان، أين انحسرت سلطته على جمع الضرائب وتأمين أجور رجال الإنكشارية والبحرية.[96]

1- الباشاوات الأوائل 1587-1604م:

كان أول باشا تولى حكم الجزائر هو أحمد باشا سنة 995هـ/1587م[97]، ويعرف أيضا في الكتابات الغربية باسم "أحمد دالي، وفي عهده نشطت أعمال البحر وبلغت أوجها، فبين سنتي 1586-1588م تمكن الرياس من قيادة حملات بحرية ناجحة على طول سواحل نابولي وصقلية والدول البابوية وكورسيكا وإسبانيا، غير أنّ حكمه لم يستمر طويلا حيث قتل أثناء محاولته القضاء على إحدى الثورات في طرابلس الغرب سنة 1589م.[98]

تولى الحكم من بعده خضر باشا التركي، حيث وصل سواحل الجزائر شهر أوت سنة 1589م، وقد نشطت البحرية تحت سلطته هو الآخر؛ "خاصة مع وجود رياس أكفاء أمثال مراد رايس وأرناؤوط[99].

وفي عهده رفض أمير قلعة بني عباس دفع الضريبة، فأرسل الخضر حملة عسكرية ضدّه في شهر ديسمبر سنة 1590م، تكوّنت من اثنا عشر ألف جندي وأربعة آلاف فارس، في الوقت الذي ضمّت قوات أمير قعلة بني عباس ثلاثين ألفا "وفق ما أورده هايدو".[100]

حاصر الجيش الجزائري قلعة بني العباس، دون جدوى الأمر الذي دفع الخضر إلى حفر خندق واسع حول القلعة وتخريّب كل ما يقع بالقرب منها، فأدرك أمير بني العباس أنه هالك لا محالة، حيث أرسل أحد المرابطين يطلب من الخضر التوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين، فوافق الأخير مقابل أن يدفع قائد قلعة بني عباس تكاليف الحرب.[101]

ورغم أن عهد الخضر قد شهد توازنا بين النشاط الداخلي والخارجي، إلاّ أن عبثية الديوان وبعض الرياس المتنفذين، جعل من بقاء الخضر على عرش السلطة في الجزائر مستحيلا، "حيث أرسلت بعثة تشتكيه إلى السلطان تحت قيادة مامي أرناؤوط"[102].

إن الباشا في الحقيقة لم يكن سوى خادما مطيعا للديوان، مقابل أن يبقى في قصره ويحصل على رتبة متميزة وحياة مادية مريحة، فرغم أن الوثائق الرسمية طالما احتوت بداياتها العبارة التالية: "نحن الباشا وديوان الجيش العثماني في الجزائر..." فإن الباشا في الحقيقة لم يكن يملك السلطة التنفيذية وأصبح مجرد أداة في يد الديوان صاحب السلطة الفعلية، ولم يكن الباشا "يجرأ حتى على الحضور إلى اجتماعات الديوان دون استدعائه".[103]

والحق أنّ السلطان العثماني لم يكن يخالف أهواء الديوان ونزواته التسلطية، حيث عيّن الباشا شعبان خلفا لخضر باشا دون أن يعاتب الديوان ولو برسالة واحدة، 'وقد حكم الباشا الجديد الجزائر ثلاث سنوات بين سنتي 1592-1595م، لم يسجل لنا التاريخ من أحداثها الشيء البارز، سوى

الطاعون والمجاعة والعاصفة التي ضربت الجزائر وأدت إلى تخريب بعض سفن الأسطول الجزائري سنة 1593م.[104]

2- ثورة الكراغلة والساكنة المحلية 1596م:

عاد خضر باشا حاكما إلى الجزائر سنة 1595م، وكلّه حقد وغلّ تجاه طائفة الإنكشارية، التي أخرجته من المدينة صاغرا في عهدته السابقة، وبمجرد وصوله الجزائر قام بحجز "خمس عشرة ألف لويزة ذهبية من أموال سلفه، وجعلها لإعادة تحصين الميناء الذي خربته العاصفة سنة 1593م"،[105] لكن عزيز سامح ألتر يؤكد "أن الخضر استأثر بهاته الأموال لنفسه".[106]

ولكي يحقق خطته المنشودة، سعى خضر باشا إلى الاستعانة بالرياس، وشحذ سكان العاصمة والكراغلة ضد الإنكشارية، مستغلا الكره والحقد الذي يكنّه العامة لهم والحق أن هذا الكره مردّه إلى سوء استخدام أفراد الجيش الإنكشاري لسلطتهم التي أثقلت كاهل الساكنة المحلية، وجعل الجيش مجرد أداة للقمع في يد قادتها.[107]

اندلعت الثورة وانضم إليها الكراغلة وأهل المدينة سنة 1596م، وشهدت أحداثها تسلسلا مروعا، حيث استمرّت لأشهر كاملة، غرقت فيها شوارع المدينة في الفوضى والدماء، "لكن ما إن التحق السكان من خارج العاصمة بثورة أشقائهم، حتى وقع النصر سنة 1596م"[108].

لقد كانت الثورة بمثابة أول تحالف يجمع أهل البلد والكراغلة، ولا ندري لما لم يتخذ الخضر لنفسه جيشا من أبناء وساكنة البلد، ويحلّ أوجاق الإنكشارية أو يحد على الأقل من نفوذها، ولم يمضي الوقت الكثير حتى عاد رجال الإنكشارية إلى سالف دسائسهم، "فراحوا يعلمون الباب العالي بأن الخضر ينوي القضاء على الإنكشارية، وهو مقدم على تأسيس جيش من الساكنة المحلية، ليستقلّ في النهاية بالجزائر"[109]، فعزل الخضر عن منصبه وعين بدلا عنه الباشا مصطفى أواخر سنة 1596م.

كان عزل الخضر وبالا على أهل البلد، حيث اشتدت وطأة الإنكشارية عليهم، ولم يجد السكان بدا سوى اعتناق الثورة مجددا، فانضم الكثير منهم إلى أمير قلعة بني عباس، وأعلنوا الثورة على الأتراك سنة 1598م، "ليزحفوا رفقة جيش الأمير نحو أبواب الجزائر العاصمة، واستقروا في باب عزون، محاصرين المدينة مدّة اثنا عشرة يوما كاملا، غير أن الهجوم الذي قاده الأتراك ضدهم أدى إلى رفع الحصار وانسحابهم إلى قلعة بني عباس".[110]

لم يكن السلطان العثماني راضيا عن تهاون الباشا مصطفى في التعامل مع تمرّد الساكنة المحلية، وأعطى الأوامر بإقالته من منصبه، "وعيّن بدلا عنه دالي أحمد الملقب بأبو ريشة سنة 1599م" وفق ما أورده ديغرامون، في حين يؤكد ابن المفتي "أن السلطان نصّب عوضا عنه حسن المعروف باسم باشا بوجقارجي سنة 1598م".[111]

3- الحملة الصليبية الإسبانية على الجزائر سنة 1601م.

تولى سليمان باشا الحكم سنة 1600م[112]، وقد واجهت ولايته العديد من الأزمات والمشاكل، كتوتر العلاقات الجزائرية الفرنسية، وتواصل الثورة في الداخل، ولعلّ ما زاد الطينة بلّة حسب ديغرامون "هو ذلك النجاح الباهر الذي كانت تحققه الثورة".[113]

قاد سليمان في نفس السنة التي تولى فيها السلطة حملة ضدّ زعيم الثوار أحمد مقران قائد مجانة، الذي توفي في المعارك، "حيث خلفه ابنه سي ناصر واشتبك في العام الموالي مع الأتراك بالقرب من جمعة الصهريج، وألحق بهم هزيمة شنعاء"[114].

كان لتسارع هاته الأحداث أثرها البالغ في تشجيع الاسبان على قيادة حملة عسكرية ضدّ الجزائر، مستغلّين تفرّق الجبهة الداخلية في البلد وتنامي المعارضة المحلية ضدّ الحكم العثماني، حيث "رأى الجاسوس الفرنسي المدعو روكس الذي خدم لفترة طويلة في البحرية الجزائرية ودرس تحصينات المدينة، أنّ الحل يكمن في إرسال أربعة سفن يتكفّل طاقمها بتحطيم باب البحرية ويطلقون سراح جميع الأسرى الأوربيين المتواجدين في المدينة"[115]، غير أن خطّة كهاته بدت أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، وهذا ما كان يعلمه جيّدا خوان دوريا حفيد القرصان الشهير أندري دوريا، الذي أعلم الملك الإسباني بأن حملة بهذا الشكل مصيرها الفشل لا محالة.

اقترح خوان دوريا أن "يرسل الاسبان أسطولا كاملا لاحتلال مدينة الجزائر، بالإضافة إلى متطوعين يتم استدعاؤهم من باقي دول القارة الأوربية"، ووفق تقرير يرجع إلى اللجنة الملكية

البريطانية مؤرخ في 18 أوت سنة 1601م، فإن "الاسبان سيحتلون في البداية بجاية ليتوجهوا بعدها نحو مدينة الجزائر"، ويواصل التقرير مؤكدا "أن الملك الإسباني قد اختار خوان دوريا قائدا على الأسطول الاسباني الذي سيهاجم مدينة الجزائر، بالإضافة إلى التحاق الدون بيترودي تولدوبدوريا بهذا الأسطول بعد تعافيه من المرض".[116]

وصل الأسطول الإسباني سواحل الجزائر شهر سبتمبر سنة 1601م، وتكوّن من سبعين سفينة وعشرة آلاف جندي، التحقوا من إسبانيا وجنوة والدويلات الإيطالية[117]، غير أن هاته الحملة كان مصيرها الفشل بسبب العاصفة التي ضربت الأسطول، ومنعت قادته من إنزال الجنود إلى البر الجزائري، ما دفع خوان دوريا إلى رفع الحصار والعودة إلى إسبانيا.[118]

عاد الخضر باشا حاكما على الجزائر للمرة الثالثة سنة 1603م، ولم ينتظر كثيرا حيث أعطى الأوامر بأن يهدم المركز التجاري الفرنسي، بسبب شكوك حامت حوله تتعلق بتسليحه، فراسل الملك الفرنسي الباب العالي يطلب منه التدخل لإعادة بناء المركز، وردا على طلب الفرنسيين أرسل السلطان "محمد كوسة واليا جديدا على الجزائر مع أوامر باتخاذ التدابير اللازمة لإعادة بناء المركز التجاري الفرنسي، وكان أول ما أقدم عليه محمد كوسة هو قتل الخضر باشا"، غير أن هذا الإجراء لم يكن يعني شيئا أمام تعنّت الديوان الذي رفض قطعا إعادة بناء المركز رغم أوامر الباب العالي.

راح الديوان يحرّض على الثورة، حيث نجحت خطته وثار الجند ضد الباشا الجديد محمد كوسة مدّة ثمانية أيام كاملة، انتهت بمقتله.

4- انتعاش النشاط البحري والاقتصادي الجزائري 1608-1632م:

أدى طرد المورسكيون من إسبانيا سنة 1609م، إلى هجرة العديد منهم إلى الجزائر والاستقرار على سواحلها، حيث أثّروا بشكل جلي على الحياة الاقتصادية للبلد عامة، سواء من خلال نشاطهم الدؤوب في الصناعة والزراعة والبحرية.

وفي المقابل نتج عن توقيع الطرفان الإنجليزي والإسباني معاهدة سلام سنة 1604م إلى إلزام بحارة الجانبين بعدم التعرض للطرف الآخر[119]، كما فُرض على الكثير من رجال البحرية الإنجليز مغادرة بريطانيا نحو بلدانهم الأصلية، في حين أصبح الكثير من البحارة مجرد عاطلين عن العمل، ولهذا فقد فرّ الكثير من هؤلاء الإنجليز نحو بلدان المغرب العربي، مثلما وقع مع "القرصان وارد الذي انضمّ إلى البحرية التونسية، وتزامنت هجرة هؤلاء البحارة "مع التحاق القرصان الفرنسي الشهير دانسر بالبحرية الجزائرية سنة 1609م، وهكذا تعلّم الرّياس الجزائريين على أيديهم طرق بناء السفن العالية القادرة على الإبحار في المحيط الأطلسي".[120]

وبهذا انتقل الجزائريون من مرحلة استخدام سفن الغاليه التي كانت تستعمل في البحر الأبيض المتوسط إلى السفن البحرية العالية *sea-going vessel* القادرة على مواجهة الأمواج العاتية في المحيط الأطلسي، حيث "تشير التقارير إلى ارتفاع عدد قطع الأسطول الجزائري ليبلغ سنة 1617 خمسين سفينة، وتزايد العدد سنة 1625م ليصل الثمانين سفينة، كما أشارت بعض

التقارير إلى ارتفاع العدد في بعض الأحيان ليبلغ الـ 120 سفينة"[121]، وقد ساعدت هذه التطورات في دعم تواجد البحرية الجزائرية في المحيط الأطلسي، حيث استطاع الجزائريون من "أسر 1200 شخص من جزيرة ماديرا سنة 1617م"[122] وأكثر من ثلاثمائة شخص من آيسلندا سنة 1627م[123]، في حين أسروا 273 شخصا من بالتيمور الواقعة في آيرلندا سنة 1631م.[124]وتشير التسجيلات إلى أن 27% من الأسرى الذين جلبوا إلى الجزائر بين سنتي 1609-1619م، كانوا من مناطق تقع على سواحل المحيط الأطلسي.[125]

والحق أن انتعاش الخزينة الجزائرية كان مردّه إلى العديد من العوامل الأخرى أيضا، ولعلّ أبرزها هو توتر العلاقات الهولندية الإسبانية "حيث أصدرت دولة هولندا مرسوما يقضي بإعطاء جوازات قرصنة لـ 130 قرصانا هولنديا بين سنتي 1606-1609م، مع أوامر بمهاجمة سفن الأعداء المتواجدة في البحر، شرط أن يمنح هؤلاء القراصنة 20% من غنائمهم إلى الدولة و10% للقائد الأعلى للقوات المسلحة الهولندية، وقد بيعت غنائم هاته العائدات في الغالب بالسوق الجزائرية أو النابولية، باعتبارهما أكبر سوقين في البحر الأبيض المتوسط"[126]، يضاف إلى كل هاته الأوضاع المتعاقبة ذلك التصدع الذي طال العلاقات الجزائرية الفرنسية، بسبب

"المدفعين اللذين استولى عليهما القرصان دانسر سالف الذكر بعد ارتداده عن خدمة الجزائريين لصالح الملك الفرنسي سنة 1610م"[127]، ولم يمضي على إعلان الجزائريين الحرب على الفرنسيين سوى بضع سنوات حتى بلغت الخسائر "الفرنسية ثلاثة ملايين جنيه سنة 1616م"[128].

لمس الفرنسيون جيّدا أن استمرار الحرب مع الجزائر، هي بمثابة الوبال على تجارتهم التي تضررت بالفعل بسبب الهجمات الجزائرية المتكررة على السفن الفرنسية، وقد "أرسل الباشا حسن الشيخ إلى فرنسا مبعوثين هما: كينان آغا وروزان، اللذان تمكنا من توقيع معاهدة مع الفرنسيين في مارس سنة 1619م، وتم الاتفاق على تبادل أسرى الجانبين وإرجاع المدفعين، غير أن الفرنسيين لم يوفوا بعهدهم ورفضوا تسليمهما، وفي هاته الأثناء استولى رجب رايس على مركب فرنسي ولخشيته من تأثير ذلك على المعاهدة الفرنسية الجزائرية، راح يواري سوأته بأن أغرق المركب، إلاّ أنّ فرار اثنين من طاقمه، عجل في ثورة العامة ضدّ الوفد الجزائري المتواجد في مرسيليا في فيفري سنة 1620م، وذبح 48 شخصا".[129]

عاد تصدع العلاقات الفرنسية الجزائرية ليطفوا على السطح مرّة أخرى، غير أن الفرنسيين قادوا جهودا مضنية لإقناع الجزائريين بالتوصل إلى حل ينهي الخلاف القائم بين الجانبين، وفعلا اتفق الطرفان على توقيع معاهدة سلام بتاريخ الـ 19 سبتمبر سنة 1628م، وأطلق سراح الأسرى وأرسل قنصل فرنسي إلى العاصمة الجزائرية، وأعيد بناء المركز التجاري الفرنسي بعد وساطات قادها نابليون مع الديوان.

غير أنّ هاته المعاهدة لم تستطع الصمود طويلا حيث أعلن الجزائريون الحرب على فرنسا مجددا سنة 1630م ، وذلك لعدم احترام الفرنسيين بنود المعاهدة السابقة، "ففي أواخر شهر نوفمبر سنة 1629م، استولت سفينة السفير لوني عند عودته من المغرب على سفينة جزائرية كلن يقودها الرايس محمد عوجية"، فثارت ثائرة الريّاس ضدّ كل ما هو فرنسي، حيث يذكر ستانلي لان بول أن "الفترة الممتدة بين سنتي 1628-1634م قد شهدت استيلاء الجزائريين على ثمانين سفينة فرنسية قدّرت عائداتها حسب الرياس ما قيمته 4.752.000 ليفر فرنسي، وما عدده 1331 أسيرا فرنسيا".[130]

وفي الجهة المقابلة لم يكن الانجليز أكثر حظا من نظرائهم الفرنسيين، فرغم البداية الحسنة للعلاقات البريطانية الجزائرية في عهد "الباشا سليمان الذي راسل لأول مرة الملكة البريطانية إليزابيث الأولى بتاريخ الـ 20 ديسمبر سنة 1600م يطلب منها إرسال تجارها للعمل على الجزائر"، غير أن النداء الجزائري لم يلقى الآذان الصاغية، وهكذا سرعان ما راح الجزائريون يتذمرون من تعامل بعض "القباطنة الإنجليز مع السفن الجزائرية أمثال القبطان ساموبل بينت وبوكولي، ورد الجزائريون بالاستيلاء على إحدى السفن الإنجليزية القادمة من البرازيل، حيث بلغت قيمة حمولتها 60 ألف سكودي، بالإضافة إلى 4000 سكودي ذهبي، وارتفعت الأرقام بشكل مخيف جدا ليبلغ عدد السفن البريطانية التي أسرها الجزائريون بين سنتي 1609-1616م الـ 466 سفينة".[131]

أرسل الإنجليز حملة بحرية على الجزائر تحت قيادة روبيرت مانسيل سنة 1620م، لأجل دفع الجزائريين على قبول الهيمنة البحرية الإنجليزية في المتوسط، حيث وصل مانسيل قبالة السواحل الجزائر يوم 27 نوفمبر من نفس السنة، وطلب من "الباشا كوسة الشريف إطلاق سراح

جميع الأسرى الإنجليز المتواجدين على الأراضي الجزائرية، غير أن الديوان رفض طلبه"، فغادر مانسيل السواحل الجزائرية دون أن يتعرض لها بأي سوء لقلّة في عدد قطع أسطوله، غير أنه عاد مجددا نحو السواحل الجزائرية يوم الـ 21 ماي من السنة الموالية وقصف المدينة دون تحقيق أي مكاسب، فانسحب نحو أليكانت".[132]

5- انهيار نظام الباشاوات 1633-1659م.

لقد واجه الباشوات منذ سنة 1633م، عدة أزمات كادت تعصف بحكمهم، حيث اندلعت الثورات وغرقت جميع أقطار البلاد في الفوضى العارمة، في حين تراجعت عائدات الغنائم البحرية ولو بشكل تدريجي؛ خاصة بعد تحطم عدد هائل من قطع الأسطول الجزائري في البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى تغول الإنكشارية وتزايد نفوذها الذي أدى في نهاية الأمر إلى سقوط نظام الباشوات سنة 1659م، وإعلان نظام الآغاوات الذي وقع تحت سيطرة وقبضة الجيش.

5-1- ثورة الكراغلة سنة 1633.

كانت عائدات الغنائم من اختصاص الديوان، الذي رفض دفع جرايات الجنود وطالب الباشا حسين بتولي تسديدها، غير أن الباشا في حقيقة الأمر لم يكن يملك من المال سوى النذر اليسير، وبالكاد يستطيع أن يدفع به بعض أجور الإنكشارية، وهكذا ثارت "ثائرة الجند وحملوا القدور بشكل مقلوب في دلالة على رفض الوضع القائم، واندلعت الثورة التي عمت المدينة".[133]

استغل الكراغلة الوضع وأعلنوا الثورة على السلطة التركية شهر جويلية سنة 1633م، في حين يؤكد الأب دان أنّ "سبب الثورة مردّه إلى قرار أعضاء الديوان بطرد جميع الكراغلة من الجزائر، حيث أعطيت لهم مهلة يومين لجمع حقائبهم والمغادرة".[134]

ويذكر الأسير فرانسيس نايت[135] الذي كان في المدينة خلال الثورة، قائلا: "قرر الكراغلة يوم الجمعة السيطرة على القصبة وامتلاك المدينة لأنفسهم، حيث لبسوا رداء نسائيا يغطي أجسادهم ووجوههم كما هو حال نساء البلد، ودخلوا القصبة وهم يصرخون "شرع الله"[136]، في حين يؤكد ديغرامون أن الكراغلة قد تخفوا في زيّ فلاحين يوم الـ 01 جويلية سنة 1633م، وهاجموا أفراد الإنكشارية[137]، الذين اعتقدوا في البداية أن قائد مملكة كوكو قد غزى االمدينة من أجل تحرير ابنه ووالدته الأسيران لدى الأتراك".[138]

استطاع الكراغلة السيطرة على حصن القصبة، لكن الجند الأتراك حاصروا القلعة من الساعة السادسة وحتى العاشرة صباحا، ولأن اليوم هو يوم جمعة فإنّ الأترك رفعوا الأعلام الخضراء، في إشارة إلى إرجاع جميع الممتلكات الخاصة لأصحابها الكراغلة دون التعرض لهم بأي أذى، بشرط أن يسلموا أنفسهم للسلطات، غير أن الكراغلة رفضوا الإنصياع لهاته المقترحات، وقرروا مواصلة

الدفاع عن مصالحهم، ولما اشتدت عليهم وطأة الحصار وعلموا أنهم هالكون، قاموا في شجاعة "بإحراق 20 ألف قنطار Quentall من البارود، ما أدى إلى تدمير جميع المنازل الواقعة على طول ميل كامل، وأظلمت وامتلأت سماء المدينة بسحاب الغبار، وعمّ الصخب في الشوارع"[139]، في حين يؤكد ديغرامون أن الانفجار قد تسبب في "خراب 500 مسكن ومقتل أكثر من عشرة آلاف نسمة،[140] وقد راح رجال الإنكشارية يثخنون القتل في الناجين من الكراغلة، الذين فرّ منهم عدد كبير نحو قبائل زواوة.

ويؤكد الأب دان أنّ الكراغلة الذين وقعوا في أيدي الأتراك قد عذبوا حتى الموت، "فمنهم من سحقت أضلعه وهو حي ينظر إلى جلاّده، وصلب آخرون على السلالم وقد سمّرت أذرعهم وأرجلهم، في حين ربطت أجساد بعضهم وسط سلاسل حديدية ضخمة طيلة أربعة أيام كاملة... ووضع البعض الآخر على الخازوق، حتى أن منهم من دفن حيا في التراب".[141]

5-3- تحطم الأسطول الجزائري سنة 1638.

خرج علي بتشنين على رأس سرية بحرية تكوّنت من 16 سفينة حربية سنة 1638م، وكان الهدف هو غزو مدينة لوريتو الإيطالية، غير أنّ رياحا عكسية دفعت الأسطول الجزائري نحو بلدة بولجيا التابعة لإمارة نابولي، فاستولى الجزائريون على عدد هائل من أسرى المنطقة، ليعطي بعدها بتشنين أوامره إلى الرياس بالتوجه نحو منطقة دالماسيا.[142]

وفي هاته الأثناء وصلت البلاط البندقي معلومات تفيد بأن الجزائريين "قد عاثوا فسادا في جميع السواحل الإيطالية وحتى البحر الادرياتكي، فأرسلوا خلفهم أسطولا ضمّ 18 سفينة حربية

تحت قيادة الأميرال مارينو كابيلو الذي أجبر بتشنين ورفاقه على اللجوء نحو سواحل فالونا بألبانيا، وقد كانت المنطقة خلال هاته الفترة تابعة للسلطان العثماني.[143]

راح كابيلو يطلق النار من مدافعه على خيم الجزائريين التي نصبت على الساحل، كما أصابت إحدى الطلاقات مسجد المدينة فأسقطته، وفي المقابل تسلّلت بعض سفن البنادقة إلى الساحل واستولت على 16 سفينة جزائرية.[144]

لقد لام البنادقة كابيلو واعتبروا فعلته في حق المنطقة الواقعة تحت النفوذ العثماني، أمرا غير مرغوب فيه، ولدرء فعلتهم همّوا إلى إغراق "جميع السفن الجزائرية باستثناء سفينة الأدميرال علي بتشنين التي احتفظوا بها كرمز انتصار"، غير أن العثمانيين سرعان ما راسلوا البلاط البندقي يطلبون فيه تعويضات بـ 500 ألف دوقة".[145]

5-3- ثورة الشرق الجزائري 1638-1643م.

وخلال هذا الجو الملبّد بسحائب الثورة، أعلن ابن الصخري التمرد هو الآخر وعمت ثورته كامل الشرق الجزائري، حيث تعود حيثياتها "إلى استدعاء الباي مراد حاكم قسنطينة محمد الصخري بوعكاز قائد مشيخة العرب وكبار عرشه، فحاكمهم مجلس الديوان وأصدر في حق محمد ابن الصخري وابنه وستة من كبار عشيرته الحكم بالموت، وكان ذلك سببا مباشرا في اندلاع الثورة التي قادها ابنه أحمد الصخري، وتلقى الباي مراد هزيمة نكراء في معركة سهل فيجل".[146]

تمكن يحيى آغا من إنهاء الثورة من خلال التوسط بشيخ أولاد عزام لدى الدواودة والحنانشة سنة 1639م، شرط أن تدفع القبيلتين ضريبة اللزمة، غير أن الوضع في البايلك لم يستقر بعد هاته التسوية حيث أعلن أولاد عبد المؤمن بدورهم الثورة على الأتراك في 12 أكتوبر سنة 1642م، بسبب الاهانة التي مسّت كرامتهم من قبل أفراد الإنكشارية، واستمرت المعارك في شوارع مدينة قسنطينة يومين كاملين توفي خلالها خلق كثير من الناس[147] ، وقد تلت هاته الثورة إعلان أولاد مقران في مجانة التمرد على الأتراك سنة 1643م، ولم تنتهي هاته الثورة إلا حين تعهد الباشا برصالي شخصيا بإلغاء بعض الضرائب المفروضة على أفرادها.

6- سقوط الباشوات 1645-1659م.

أرسل السلطان العثماني في عهد محمد بورصالي مبعوثا إلى طائفة الرياس، يطلب منهم الالتحاق بالأسطول العثماني في حملته على مالطة، غير أن "علي بتشنين قائد الأسطول رفض الإنصياع لأوامر السلطان بسبب الكارثة التي وقعت للأسطول العثماني في فالونا"[148]

والحق أن هاته الهزيمة كانت القشّة التي قسمت ظهر البعير، حيث أن الكثير من القباطنة أصبحوا خارج الخدمة، ولم يجد الأسطول الجزائري توازنه بعد هاته الخيبة "إلاّ في سنة 1641م عندما تمكن بتشنين من تجهيز أسطول يتكون من 65 سفينة حربية جزائرية".[149]

أرسل الباب العالي مبعوثين لقتل علي، فثار السكان على الباشا بورصالي والمبعوثين، وفرّ ثلاثتهم نحو ضريح الولي عبد الرحمن الثعالبي، إلا أن أخرجهم علي من الضريح تحت حمايته.

وما إن لمس العثمانيون قوّة ونفوذ علي حتى سارعوا إلى المراوغة، فأرسلوا الباشا أحمد خلفا لبورصالي، وعيّنوا بتشنين قائدا أعلى للبحرية العثمانية[150]، وما هي إلاّ أيا من وصول أحمد إلى الجزائر حتى توفي علي بتشنين، فحامت الشكوك حول الباشا الجديد، واتهم بدسّ السّم لعلي بغية التخلص منه[151]، ويخبرنا ديغرامون قصة طريفة عن شقيق علي، الذي ورثه وراح يفتخر "بأمواله افتخارا مبالغا به، حتى أنه لم يكن يخرج من منزله إلا وهو محاط بمائة من الفرسان".[152]

والحقيقة أن وفاة علي بتشنين كان بداية النهاية لعهد الباشوات حيث تكالبت الأزمات على البلاد، انطلاقا من الهزيمة التي تكبدها الأسطول الجزائري في مواجهة الحلف البندقي– المالطي يوم الـ 16 فيفري سنة 1647م ، أين استشهد في المعارك 250 بحارا جزائريا وأسر 150 شخصا آخرين إضافة إلى خسارة الكثير من القطع البحرية، ولم يكد يفق الجزائريون من هاته النكسة حتى قاد الملك المغربي محمد مولاي حملة على الغرب الجزائري انطلاقا من سجلماسة سنة 1648م[153]، ولأن الأزمات لا تأتي فرادى فقد ضرب الطاعون الذي ضرب البلد بين سنتي 1650–1654م، ثم 1654–1666م".[154]

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد حيث أرسل الإنجليز أسطولا مكونا من 24 قطعة بحرية، تحت قيادة روبيرت بلايك إلى البحر الأبيض المتوسط سنة 1655م، وأعطيت له الأوامر باستهداف

أي سفينة جزائرية يقابلها في البحر، ولسوء حظ الجزائريين[155]، فقد تمكن بلايك من إغراق تسع سفن جزائرية بالقرب من سواحل بورتو فارينا، وتحطيم الكثير من مدافع التحصينات الموجودة على سواحل العاصمة، أين استطاع الحصول على بعض الترضيات من الجزائريين والعودة إلى لندن.[156]

وأمام هاته الأوضاع المضطربة والأزمات التي كانت تعصف بطائفة الرياس، تمرد رجال الإنكشارية على الحكم، متحججين بتأخر جرايات الجند، فألقوا القبض على الباشا إبراهيم وزجّوا به في السجن، حيث اجتمع الديوان على جناح السرعة وتقرر إنهاء نظام الباشوات مع الإبقاء على ممثل السلطان دون أن يكون له أي تأثير على سير شؤون الدولة، وعيّن الأغا خليل أول آغا على الجزائر.

7- مميزات عهد الباشوات:

تميز حكم الباشاوات بالآتي:

- دام عهد الباشوات 72 سنة كاملة.

- تولى حكم الباشوات ثلاثون واليا، أين كان الباشا يحكم لمدة ثلاث سنوات ويعيّن من الأستانة مباشرة، ولأن المدة قصيرة فقد انصرف الكثير من هؤلاء الباشوات إلى السلب والنهب ومحاولة الاغتناء وجمع الثروة.[157]

– فصل الحكم العثماني في المغرب العربي والذي كان مقره سابقا بالجزائر، وتعيين باشا تركي في كل من الجزائر وتونس وطرابلس، يحكم كل واحدة منها مبعوث أو أحد قادة الإنكشارية أو البحرية.[158]

– تزامن عهد الباشوات مع ما يسميه الغرب قرن "القرصنة"، أين برز فيه الرياس الجزائريون بشكل لافت، فبعد هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو سنة 1571م، وهزيمة الإسبان في معركة الأرمادا ضد الانجليز سنة 1588م، تراجعت قواتهما وأُفسح المجال لبحارتهما أو ما يسميه الغرب "القراصنة "*Corsairs*" للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ومهاجمة مناطق وتجارة الدول المعادية، ولقد كانت هاته المرحلة أحد أكثر المراحل التي توهجت فيها عائدات البحرية الجزائرية، أين "تمكن الجزائريون من الوصول إلى جزيرة آيسلندا سنة 1627م،[159]وأسر 242 آيسلنديا، كما قادوا هجوما آخر على بالتيمور الواقعة في آيرلندا سنة 1631م وتمكنوا من أسر حوالي 273 أسيرا آيرلنديا".[160]

– بداية الانفصال عن الباب العالي ولو تدريجيا، ففي سنة 1604م وقع الهولنديون معاهدة سلام مع الجزائر، حيث كانت الدول الأوربية في السابق توقع المعاهدات مع الدولة العثمانية دون الحاجة إلى الجزائر.[161]

عمار بوحوش، مرجع سابق

– كان الحكم سجالا بين الإنكشارية ورجال البحرية، وهذا خلق صراعا مستمرا سيؤثر لقرون في طبيعة الحكم العثماني في الجزائر، "حيث تم قتل العديد من الباشاوات بسبب الصراع القائم على السلطة، مثل: خضر باشا الذي أعدمه محمد قوصة باشا، ونفس الباشا محمد قوصة ما مقتولا هو أيضا".[162]

– اعتناق عدد هائل من الأسرى المسيحيين للإسلام، بشكل جعل الكنيسة تدق ناقوس الخطر، حيث تقدم لنا بعض الإحصاءات ان عدد الأسرى الذين اعتنقوا الإسلام قد بلغ ثلاثمائة ألف خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1550–1700م.[163]

–لم يشهد عهد الباشا والتوسعات ولا فتوحات داخلية جديدة، إلا أنه وعلى الصعيد الخارجي شهد نموا ملحوظا للبحرية الجزائريةحيث بلغ نشاطها سواحل آيسلندا وبالتيمور سنتي 1627م و1631م، وقد تزامن هذا النشاط مع ما يسميه الغرب "العهد الذهبي للقرصنة 1580–1680م".

المحاضرة الخامسة

عهد الأغوات 1659-1671م

1- خليل آغا.

2- رمضان بولكباشي.

3- شعبان آغا.

4- علي آغا.

5- مميزات عهد الأغوات 1659-1671م.

ثارت الإنكشارية على الباشا إبراهيم بعد أن استاءت من الوضعية المالية للبلد، رغم محاولات الباشا ابتزاز "أغنياء المدينة وفرض غرامات إضافية على التجار والحرفيين...الخ" كي يدفع مستحقات الانكشارية، لكن في النهاية قام قادة الثورة برميه في غياهب السجن في جوان سنة 1659م، "وطردوا ممثل الباب العالي علي باشا الذي طلب انضمام الأسطول الجزائري إلى الأسطول الهاميوني في كريت".[164] ويذكر عزيز سامح ألتر أن الإنكشارية وبعد اجتماعها في الديوان قررت وضع الباشا وأتباعه في غليوطة وإرسالهم إلى أزمير... وردّ الصدر الأعظم كوبرلو محمد باشا برسالة إلى الإنكشارية يقول فيها: "أخيرا لن نرسل إليكم واليا، بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم، فالجزائر إن كانت وإن لم تكن شيء واحد...".[165]

اتفق أعضاء الديوان على إحداث نظام جديد تكون فيه السلطة مطلقة للجيش، حيث يعيّن الحاكم من الأغواط رؤساء فرقة الإنكشارية، شرط ألاّ يتجاوز نصيب حكم الآغا الواحد شهرين، غير أنّ نظاما مثل هذا غرس بوادر سقوطه في نشأته، ذلك أن الأغا لم تكن تكفيه هذه المدّة القصيرة على سدّة الحكم، ما جعل أغلبهم يرفضون التنازل عن السلطة في الفترة الزمنية المحددة والتي تم الاتفاق عليها مسبقا.

1- خليل آغا:

عيّن خليل آغا البولكباشي حاكما على الجزائر بصفته قائد الثورة في ذي القعدة من سنة 1069هـ الموافق لـ جويلية سنة 1659م[166]، وكان على الأغا مواجهة انتفاضة السكان، حيث " رفض السكان دفع الضريبة وتعمّ الثورة الكثير من مناطق الشرق الجزائري"،[167] بسبب تدمير الأتراك لحصن الباستيون.

والحق أنّ خليل باشا وعلى قصر فترة حكمه، إلاّ أنّه استطاع تنظيم شؤون الدولة بشكل لم يقدر عليه المتأخرون من الباشوات، حيث شهد حكمه توفير موارد ماديّة معتبرة للخزينة، "أين قام بإلغاء الضرائب المجحفة التي فرضها سابقوه على التجار المحليين والأجانب وخفّض نسبة التعريفات الجمركية المفروضة على البضائع، ولم تتوقف قرراته عند هذا الحد فقط؛ بل اتخذ إجراءات جد صارمة فيما يتعلّق بجباية المحلاّت، وعزل الكثير من القواد المتواطئين وغير النزهاء في عملية جمع الضرائب من الساكنة المحلية".[168]ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد تمكن خليل من تأمين "جرايات الجند في وقتها المحدد، وحصل فائض في الخزينة، الأمر الذي جعله محلّ احترام رجال الإنكشارية.[169]

سعى الأغا إلى إصلاح الوضع مع الباب العالي حيث أرسل وفدا إلى أزمير يطلب الصفح من السلطان، غير أنّ الصدر الأعظم لم يقبل شفاعتهم، وأمر جميع الولايات العثمانية بأن تمتنع

عن التجارة أو التجنيد أو بيع السلاح أو استقبال الحجاج الجزائريين[170]، ولهذا سارع الجزائريون وهم مرعوبين إلى "إخراج إبراهيم باشا من السجن" وإرجاعه إلى منصب، واعترفوا بمنصب الباشا رغم عدم إرسال الباب العالي أي ممثل عنه، حيث "تثبت إحدى رسائل القنصل الفرنسي بما لا يدع مجالا للشك أن خليل قد حافظ على منصب الباشا".[171]

غير أنّ خليل أغا هذا ورغم إصلاحاته الكثيرة إلاّ أنّه انفرد بالحكم لنفسه ورفض التنازل عن السلطة بعد انقضاء فترة ولايته المقدّرة بشهرين، وهذا حال كل الأغوات الذين تعاقبوا على الحكم الأمر الذي أدى في النهاية إلى مقتلهم جميعا، وتشير بعض التسجيلات إلى أن "بعض المعارضين لحكمه تسللوا إلى مقر الحكم وقاموا بقتله شهر أكتوبر سنة 1659م، ويذهب آخرون إلى أنّ الأغا قد قتل في إحدى أزقّة العاصمة الجزائرية على يد قتلة مأجورين يعملون لصالح كبراء الدولة، مع أن خليل كان لا يزال يحظى بدعم الديوان نفسه" الذي قرر "الموافقة على تجديد عهدته لعام آخر"، ويرى صاحب كتاب "مرآة المحبة المسيحية" "أن الرأي السائد في الأوساط العامة للجنود سنة 1662م، هو أن المتوفى خليل كان يميل إلى رفاهية الجنود ودعم الخزينة حيث اتفق الجميع على أحقيته بالحكم".[172]

2- رمضان بولكباشي:

تولى رمضان بولكباشي العرش خلفا لخليل أغا، أيضا "بيورك رمضان، وكان أول ما قام به هو بناء حصن رأس تافورة"[173]، والمسجد الجديد بالجزائر العاصمة.

وقد شهد عهد رمضان أغا استمرار الثورة التي اندلعت في الشرق الجزائري خلال عهد سابقيه بسبب هدم المركز التجاري الفرنسي حيث رفضت الساكنة المحلية دفع الضريبة، كما أعلن السي أحد بن أحمد الاستقلال عن الاتراك واستقر بنفسه في تامغوت (جيجل).[174]

ورغم كلّ هذه المشاكل الداخليّة إلاّ أنّها لم تكن مهمّة بالنسبة للأغا بقدر ما كان مهمّا إعادة بعث العلاقات مع الباب العالي؛ خاصة وأنّ الجزائر قد عانت من قطع هذه العلاقات بالإضافة إلى تذمر الساكنة المحلية من الوضع، حيث استغل رمضان وفاة الصدر الأعظم محمد كوبرولو وتعيين مصطفى قارة خلفا له، وبعث برسالة إلى السلطان العثماني أوائل سنة 1661م يقول له فيها:"إنك لو أرسلت لنا كلبا لقبلناه باشا علينا".[175]

وافق السلطان على طلب الجزائريين وأرسل إسماعيل بوشناق باشا جديدا على الجزائر، وتشير بعض التقارير إلى أنّ الجزائريين قد "أنفقوا من أجل ترقيع العلاقات مع الباب العالي حوالي الـ 10 آلاف دوقية".[176]

والواقع أن إسماعيل باشا هذا لم يكن سوى ممثلا عن الباب العالي، حيث لم يمنحه الجزائريون أيّ صلاحيات تنفيذية، فقد آلت جميع الصلاحيات إلى الآغا والديوان.

وفي مقابل هاته الأزمات التي كانت تعيشها الجزائر، نشطت البحرية في عهد الآغا رمضان بشكل غير مسبوق، فأحصت سلطات مارسيليا خسائر قدّرت بـ مليون وأربعمائة ألف إيكة[177]، في حين خسر الإيطاليون مليوني ليرة وخمسمائة أسير، كما استطاع الجزائريون الاستيلاء على تسع مراكب هولندية واثنا عشرة مركبا إنجليزيا واثنا عشر مركبا فرنسا وإيطاليا[178]، ولوقف هاته العمليات سارع الفرنسيون إلى إرسال بيار دي دومينياك إلى الجزائر العاصمة من أجل التوصل إلى اتفاق ينهي الخلاف القائم، وفعلا "اتفق الطرفان على إعادة بناء الباستيون يوم الـ 02 فيفري سنة 1661م"[179]، غير أن الملك الفرنسي رفض التوقيع على المعاهدة، في حين ألحّ القنصل الفرنسي في الجزائر فيليب لوفاشي على الفرنسيين "إرسال عمارة ضد الجزائر تعطي انطباعا عن عظمة الملك".[180]

وهكذا اتفق ديوان الملك على تسليح عشرة سفن حربية تحت قياد الفارس بول بتاريخ الـ 02 ماي سنة 1661م، هدفها استهداف السفن الجزائرية المتواجدة في البحر الأبيض المتوسط.[181]

وعلى عكس الفرنسيين فقد اختار الإنجليز الطريقة السهلة، حيث "قرر الملك البريطاني تشارلز إرسال إيرل وينشيلسي سفيرا إلى القسطنطينية أملا في الحصول على ترضيات من السلطان لإقامة السلم مع الجزائريين، غير أنه سرعان ما غير رأيه واتجه مباشرة نحو الجزائر بعد

أن تمكن القنصل البريطاني براون من الحصول على ترضيات من أجل إقامة السلم مع الجزائريين".[182]

وصل وينشيلسي الجزائر على متن السفينة الحربية بلايموث، ووقعت المعاهدة في ديسمبر سنة 1660م، والتي تضمنت:[183] – عدم تعرض الجزائريين للممتلكات والسفن البريطانية التي غرقت على سواحل الجزائر. – لا يدفع القنصل ولا المواطنون البريطانيون ديون مواطنين آخرين، إلا إذا وافق هؤلاء على ذلك عن طيب خاطر. – يمكن للجزائريين إرسال مفتشين إلى السفن البريطانية، أين يحق لهم حجز أي ممتلكات أو غرباء كانوا على متنها.

لم يستمر حكم رمضان آغا طويلا، فقد هاجت الإنكشارية ضدّه وقتلته وسط سوق البادستان يوم السبت 15 محرم سنة 1072هـ الموافق لـ 09 سبتمبر سنة 1661م، ويذكر دارندا حيثيات وفاته بقوله: "لقد قتل رمضان آغا رفقة ثمانية وعشرين شخصا من مجلسه، حيث رميت أجسادهم إلى الكلاب في الشوارع، وأما سبب الثورة فيرجع إلى محاولة رمضان الاحتفاظ بالحصة الأكبر لإحدى غنائم القمح".[184]

3- شعبان أغا:

تولى شعبان آغا الحكم خلفا لرمضان أغا، وهو "مهتد برتغالي الأصل، ورجل طيب وعادل وحكيم، فضلا عن كونه رجلا غنيا جدا"[185]، ويروي دارندا عن تعيين شعبان أغا قوله: "قام الجنود بإخراج أحد الباشوات –إبراهيم أغا– من السجن وتعيينه أغا جديدا على البلاد، وكان أوّل ما قام به هذا الباشا هو استئجار قاتلين مقابل عشرة آلاف قطعة نقدية لقتل أحد الأغوات –يقصد الأغا

شعبان!- غير أن الأخير تفطن لمكيدته، واشتكى إلى الديوان الذي قام على الفور بإلقاء القبض عليه والزجّ به في السجن، في الوقت الذي همّ فيه الأغا شعبان يستغل الوضع أين عرض نفسه على الديوان ليعيّنه حاكما على البلد، ووعد بأن يرفع جرايات الجند إلى الضعف كل شهر، فوافق الديوان على طلبه ونصّب حاكما على البلد".[186]

وفي عهد شعبان أغا توترت علاقة السلطة المركزية في الجزائر العاصمة مع باي قسنطينة، والحق أن الوضع الداخلي في فترة حكم هذا الأغا شهد كوارث عديدة، حيث استمرت الثورة في كامل الشرق الجزائري، وانتشر الطاعون الذي أودى بحياة الكثير من الناس، وحسب بعض التقارير فقد أودى "بحياة عشرة آلاف أسير مسيحي".[187]

وأما على الصعيد الخارجي فقد شهدت العلاقات الجزائرية الفرنسية توترا طيلة حكم شعبان أغا، حيث "عيّن دوق بيفورت على رأس عشرين سفينة قرصانية فرنسية ربيع سنة 1662م، وأوكلت له مهمة مهاجمة السفن الجزائرية المتواجدة في البحر الأبيض المتوسط[188]، كما قاد الفرنسيون في العام الموالي حملة ضد القل، فشبّت على سواحل المدينة معركة عنيفة بين القوات البحرية الفرنسية والجزائرية، وانتهت بخسارة الجزائريين نحو عشرين سفينة، ورغم هذه الانتصارات الفرنسية إلا أنّ الحملة على القل فشلت، وقرر الأسطول الفرنسي التوجه نحو ميناء مدينة الجزائر وإضرام النار في قطعه، غير أن الوحدات الجزائرية تفطنت لهذه المحاولة وأفشلتها.[189]

ولا تأتي الأزمات فرادى فقد أدىّ تحطّم خلد الجزائر العاصمة بسبب العواصف والزلازل، إلى تشجّع الهولنديين لاستغلال الوضع وإرسال حملة بحرية ضدّ الجزائر من أجل إرغام السلطات

على توقيع السلم، وفعلا وصل رويتر الجزائر على رأس تسعة بوارج بحرية أمام العاصمة الجزائرية بتاريخ الـ 22 مارس سنة 1662م، وتمكن من توقيع السلم مع الديوان يوم الـ 26 مارس". ولم تختلف المعاهدة كثيرا عن المعاهدات الأوربية السابقة في محتواها؛ خاصة ما تعلق بالتجارة وتفتيش السفن، فقد أكدت المادة الثانية والثامنة أحقية بحارة الجزائر في "تفتيش المراكب الهولندية والاستيلاء على ممتلكات مواطني الدول المعادية للجزائر، وأن السفن التجارية الهولندية مطالبة بأن لا تحمل على متنها إلاّ الفنلنديين، الفرنسيين، الإنجليز والألمان ومن بينهم الآيرلنديين، السويديين، النرويجيين وكل الشعوب ذات الانتماء الألماني، وعدى هذا فإن كل الشعوب الأخرى سواء كانوا رحالة أو تجارا من ليسوا في خدمة السفينة يعتبرون قانونيا غنائم للجزائريين"[190]، في حين أشارت المادة التاسعة إلى أنّه وفي حالة "وجود مواطنين هولنديين على متن السفن المعادية التي أسرها الجزائريون، فإنهم يسلمون إلى القنصل الهولندي بالمدينة"؛ ويؤكد "محمد توتنشو أن البند السابق لم يرد ذكره في النسخة العثمانية".[191]

غير أنّ السلطة الهولندية رأت أنّ المعاهدة السابقة "قاسية جدّا"، ورفض الملك المصادقة عليها؛ خاصة البند المتعلق بتفتيش السفن، وأعطيت أوامر جديدة إلى روتير بالعودة إلى الجزائر، وفعلا غادر الأخير هولندا قافلا باتجاه الجزائر أواسط شهر جوان، حيث اجتمع بالديوان ووقعت المعاهدة في 22 نوفمبر من نفس السنة.

احتوت المعاهدة على 13 بندا، حيث أشارت المادة الثانية إلى ضرورة احترام أسعار بيع الأسرى الهولنديين عند قيام دولة هولندا بعمليات افتداء، ذلك أن البيع يكون بسعر البادستان [سوق بيع الأسرى]، في حين عالج البند الثالث التعاون بين الدولتين حيث يستطيع للجزائريون

أن يطلبوا أي سلعة من هولندا وسيتم إرسالها في سفن تجارية، وأما المادة الخامسة فقد تطرقت لقضية تحطم السفن الهولندية على السواحل حيث لا يحق للجزائريين أسر أطقمها ولا الاستيلاء على ممتلكاتها، وعالجت المادة السابعة والعاشرة قضية أسر السفن المعادية، فإن وجد على متنها أسرى هولنديون وأظهروا وثائقهم يجب إخلاء سبيلهم على الفور، كما يجب على تحرير طاقم السفت الهولندية أن يظهروا جوازات سفرهم عند مقابلة الجزائريين في البحر؛ وأكدت المادة الثامنة أن تتعامل العدالة الجزائرية [المجلس الجزائري] بعدل في حالة وقوع خلاف بين هولندي وجزائري، في الوقت الذي أشارت فيه المادة الثالثة عشر إلى وجوب حمل الجزائريين جواز سفر هولندي ممضى من القنصل الهولندي في الجزائر، وذلك لتمييز السفن الجزائرية عن تلك المعادية للسلطة الهولندية.[192]

توفي شعبان آغا في ظروف غامضة، غير أن بعض المصادر "تشير إلى أن شعبان آغا قتل على يد الإنكشارية"[193] في الأشهر الأولى من سنة 1664م، وأما عن حيثيات مقتله فقد اختلف التسجيلات، حيث يرجعه البعض إلى تأخر أموال الفدية التي وعد بها دي رويتر الجزائريين، في حين يرى آخرون إلى أنّ مقتله يعود إلى ثورة الإنكشارية بسبب تجهيز الفرنسيين حملة على السواحل الجزائرية.

غير أنّ سبب وفاته يرجع إلى وقائع متعددة فبالإضافة إلى ما سبق، فإن الوضع الداخلي كان محتدما وأشد صعوبة من الوضع الخارجي، حيث عمّت "الثورة كامل الشرق الجزائري، كما

أن الطاعون الذي تفشى في المدينة سنة 1663م، زاد الطينة بلّة فقد فتك بخلق كثير، حتى أن بعض التقارير تشير إلى وفاة 60 ألفا من الجزائريين نتيجة الطاعون".[194]

4- علي أغا:

تعتبر فترة حكم علي آغا أطول فترات عهد الأغوات، "ولا نعرف تاريخ توليه الحكم بالضبط حيث تختلف المصادر فيشير بعضها إلى أنّ تولي علي أغا الحكم يرجع إلى سنة 1664م، في حين يؤكد فريق آخر أن توليته تعود لسنة 1665م أو 1666م".[195]

استأثر علي بالحكم لنفسه، وأوجد لقب الحاكم، حيث احتفظ بجميع السلطات التنفيذية بشكل شبه مطلق.[196]

واجه حكمه مشاكل داخلية عسيرة حيث ثار الأعراب المقيمون على ضواحي مدينة الجزائر سنة 1668م، ولم يمضي وقت طويل حتى اندلعت نيران الثورة في بلاد القبائل، ولأن المشاكل لا تأتي فرادي فقد ضرب الطاعون الجزائر وهزّ أركانها.[197]

وأما على الصعيد الخارجي فقاد الفرنسيون حملة على جيجل سنة 1664م، "حيث ادعوا أن الهدف هو إنشاء قاعدة جد متقدمة تتوسط الجزائر وتونس من أجل مهاجمة القراصنة المغاربة"، غير أن الواقع يثبت أن الفرنسيين كانوا يسعون إلى إنشاء قاعدة في جيجل تساعدهم على دعم تجارتهم الماركنتيلية في البحر الأبيض المتوسط، وذلك استئثارا بالإنجليز الذين استولوا على طنجة سنة 1662م.

اختار الفرنسيون في النهاية جيجل كقاعدة لهم على الرغم من أنّ القواعد التجارية الفرنسية تركّزت في بجاية وعنابة وستورا، ويبدو أنّ "خلافا قد وقع بين قائد الحملة الدوق بيفورت والمهندس المسؤول عن التحصينات المدعو كونت دي غاداني الذي أصرّ على احتلال بجاية".[198]

أقلع الأسطول الفرنسي رفقة بعض السفن المالطية من ميناء طولون بتاريخ الـ 02 جويلية سنة 1664م، وبلغ سواحل بجاية في 21 جويلية، حيث هاجموا التحصينات التركية المتواجدة بالمدينة، واستولوا على المدينة يوم الـ 23 من نفس الشهر،[199] ونصبوا العلم الفرنسي والصليب على مئذنة المدينة، وهذا ما يثبت أن الحملة لم تكن مجرد حملة عسكرية وفقط، بل هي حملة صليبية ضد دولة مسلمة.

وردّ الجزائريون في اليوم الموالي بإرسال حملة على القلعة، حيث "خرج القائد المالطي شارل فيليكس دي غالين لملاقاتها، وبعد اشتباكات دامت لساعات استطاع المالطيون إجبار الجزائريين على التراجع بعد أن خسروا الكثير من الجند، في حين قتل أربعمائة مالطي".[200]

لم يهنأ الفرنسيون كثيرا بمستقرهم الجديد، حيث قاد الجزائريون مجددا حملة على "جيجل في 29 أكتوبر من نفس السنة، استطاعوا من خلالها إبادة الحامية الفرنسية وأسر الكثير من أفرادها، أين خسر الفرنسيون ألفا وأربعمائة قتيل على أرض المعركة".[201]

كان لهذا الانتصار وقعه البالغ في العلاقات الفرنسية الجزائرية، حيث سارع الفرنسيون إلى عقد الصلح مع الجزائريين، وفعلا توصل الطرفان إلى اتفاق تم بموجبه توقيع معاهدة سلام "يوم 17 ماي سنة 1666م[202]، وبمقتضى هاته "المعاهدة استرجع الفرنسيون مركزهم التجاري".[203]

وما إن تفرغ الجزائريون من مشاكل الطرف الفرنسي حتى أعطى السلطان العثماني أوامره إلى قادة الأسطول الجزائري لأجل اللحاق بالأسطول العثماني في خانية –كريت–، وفعلا أقلع الأسطول ملبيا النداء غير أن البنادقة تمكنوا من إلحاق هزيمة نكراء بالجزائريين وإجباره على العودة إلى الجزائر، وفي طريقه استولى الرياس على "بعض السفن التجارية الفرنسية، إلاّ أن الفرنسيين أرسلوا إلى الجزائر الماركيز دي مارتيل الذي استطاع استعادة ما أخذه الرياس".[204]

وفي عهد الأغا علي توترت العلاقات الجزائرية البريطانية، حيث بعث الملك البريطاني توماس ألين إلى الجزائر في أوت سنة 1669م، أملا في التوصل إلى اتفاق مع الجزائريين ينهي الخلاف بين الفريقين، غير أن الأخير لم يستطع إقناع الأغا علي، "ليعود مجددا إلى الجزائر في شهر سبتمبر من نفس السنة ويقبل على قصف المدينة، وردت السلطات الجزائرية بإلقاء القبض على القنصل الإنجليزي ويليامسان، وإلقائه في السجن رغم أن الأخير كان أحد مقربي علي أغا".[205]

أعلن الإنجليز الحرب على الجزائر، واستولوا على ستة سفن جزائرية في 12 أوت سنة 1670م، كما قادوا شهر ماي سنة 1671م حملة على ساحل بجاية، واستطاعوا تدمير سبع بوارج جزائرية ذات الثمانية والعشرين مدفعا.[206]

كان لهاته الخسائر المتتالية أثرها البالغ على الرياس الذين أعلنوا الثورة ضد نظام الأغوات شهر سبتمبر سنة 1671م، "وخنقوا الأغا علي 18 أكتوبر"، في حين يذهب غليزي إلى أنّ الإنكشارية هي التي قتلت الأغا بعد عودتها من محلةّ جمع الضرائب من الشرق الجزائري.[207]

5- مميزات عهد الأغوات 1659-1671م.

وتميّز نظام حكم الآغاوات بالآتي:

- يحكم الأغا شهرين فقط؛ لكن في الحقيقة ولا آغا واحدا استمر حكمه الشهرين، حيث أن جلهم استأثروا بالحكم لأنفسهم.[208]

- دام عهد الآغواتاثنا عشر سنة فقط، حيث امتد بين سنتي 1659-1671م، وبهذا فهو أقصر الأنظمة العثمانية في الجزائر.

- رغم قصر فترة حكم الآغاوات إلاّ أن هذا لم يمنع من كونه أسوء نظام حكم شهدته الجزائر على طول فترة الوجود العثماني في الجزائر بين سنتي 1519-1830م، حيث توفي كل الآغاوات مقتولين، فأول حاكم للجزائر هو "بولكباشي خليل الذي حكم خلال الفترة بين سنتي 1659-

1661م، حيث قتل بعد انقلاب الإنكشارية على الحكم، والسبب هو الهزائم التي توالت على الأسطول الجزائري ضد الدول الأوربية".[209]

– سيطر على الحكم الإنكشارية بعد أن عزلوا الرياس، وأصبح الأغا يتم انتخابه من قبل ديوان الإنكشارية.[210]

– حاولت الإنكشارية وضع نظام يمنع الأغا من الاستئثار بالحكم لنفسه، من خلال الاستعانة بالديوان العالي الذي يضم أعضاء الفرق العسكرية البرية، ثم تم توسعته لاحقا حيث أصبح يضم ممثلين عن طائفة الرياس البحرية وبعض كبار الموظفين ومفتي الجزائر.[211]

– ساءت العلاقات الجزائرية الإنجليزية كثيرا خلال عهد الأغوات، فأرسل الإنجليز حملة ضد الجزائر تحت قيادة توماس ألين، انتهت بتوقيع السلم مع الأغا في 30 أكتوبر سنة 1664م.[212]

– انهيار النفوذ العثماني في الجزائر وتراجعه، نتيجة رفض الآغوات استقبال ممثل السلطان إلى الجزائر.

المحاضرة السادسة

عهد الدايات 1671-1830م.

1- الدايات الأوائل 1671-1711م.

2- قرن سلم 1690-1770م.

3- مرحلة الانهيار والسقوط 1775-1830م.

4- مميزات عهد الدايات.

أدت الهزائم المتوالية التي لحقت بالأسطول الجزائري، والتي كان آخرها الهزيمة أمام الإنجليز سنة 1670م، إلى تآمر طائفة الرياس على علي أغا واغتياله، "وفي المقابل سارع قادة الإنكشارية إلى انتخاب خليفة لعلي، غير أنّ كلّ محاولاتهم باءت بالفشل الذريع، ويقال أن الديوان عيّن خمسة أو ستة أغوات في ثلاثة أيام فقط، وقد امتنع كلّهم عن الجلوس على كرسي الآغوية خشية الموت اغتيالا".[213]

استغل الرياس تعطل انتخاب أغا جديد، وقرروا إلغاء نظام الآغوية، واستبداله بنظام جديد أكثر استقرارا وأطول عمرا، حيث ينتخب فيه الداي مدى الحياة دون أن يورّث الحكم لأبنائه كما وقع في تونس.

وكان عهد الداي أوله حرب وجهاد بحري ومعاهدات وحملات أوربية، وأوسطه سلم واستقرار، وأما أواخره ففساد وسقوط دولة.

1- الدايات الأوائل 1671-1711م.

استقرت طائفة الرياس على انتخاب "الرايس محمد التريكي (1671-1682م) كأول داي على الجزائر، والحق أن الداي الجديد كان ذا جاه ومحترما من جميع رجال البحرية غير أنّ كبر سنّه جعل السلطة التنفيذية تؤول إلى صهره زوج ابنته المدعو بابا حسن"، الذي استطاع بحنكته وبراعته السياسية إعادة هيبة البحرية الجزائرية حيث نشطت في عهده الهجمات الجزائرية في البحر الأبيض المتوسط.

واجه حكم الداي محمد التريكي عدّة صعوبات ستصبح ميزة نظام الدايات عامّة، "فقد أدّى تراجع سطوة الإنكشارية إلى تشكل عناصر جديدة من اليولداش، أشد سطوة وتمرّدا حيث لم تعد

تطيق صبرا على تأخر دفع جراياتهم، ولهذا راح التريكي يستدين من اليهود، وبذلك غدا اليهود مثل البنك بالنسبة للداي، وازداد نفوذهم حتى أصبحوا وسطاء سياسيين ثم مستشارين له".[214]

وفي المقابل حاول الداي الجديد إعادة بناء العلاقات الجزائرية الأوربية من خلال عقد معاهدات مع الدول الكبرى، ولتحقيق هذه الغاية أعطى تلميحات إلى الهولنديين لتجديد معاهدة الصداقة، "خاصة وأن العلاقة بين الطرفين شهدت أسوء ركود لها في الفترة الممتدة بين سنتي 1662-1674م".[215]

فبعث الجزائريون برسالة إلى الأمير الهولندي ويليام بواسطة التاجر اليهودي يعقوب دو باز وموزس رافييل سالوم الأممستردامي، يطلبون فيها إعادة بعث العلاقات الجزائرية الهولندية، وردت السلطات في لاهاي بإرسال توماس هيس إلى الجزائر، حيث توصل الطرفان إلى توقيع معاهدة سلام سنة 1679م.[216]

وفي سنة 1675م شنّ الأسبان حملة على تلمسان، غير أن الساكنة والأتراك قادوا هجوما مضادا ضدّهم ودفعوهم إلى التراجع نحو أسوارهم، واستغل الأتراك الطاعون الذي أودى بحوالي ثلاثة آلاف من أهل وهران فحاصروا المدينة مجددا.

كما أرسل بابا علي تدعيمات إلى الجيش الجزائري المرابض على حدود وهران والمرسى الكبير أين استمر الحصار مدّة ثلاث سنوات كاملة[217]، ويؤكد بعض المؤرخين أن الحصار رفع بسبب العمارة التي وصلت وهران من قرطاجنة نهاية جانفي سنة 1677م، غير أن الأتراك سرعان

ما أعادوا الكرّة وحاصروا المدينة رفقة الساكنة المحلية في السنة الموالية[218]، وحاولوا اقتحامها لكن دون جدوى، وزاد الطاعون الطين بلّة بعد أن قتل خلقا كبيرا من الجانبين.[219]

استغل الأسبان الوضع فقادوا حملة ارتدادية ضدّ الجزائريين تمكنوا من خلالها أسر ثمانمائة جزائري، الأمر الذي أجبر الجزائريين على الانسحاب خاصّة بعد وصول أنباء تفيد بأن الإنجليز يفكرون في شنّ حملة بحرية على الجزائر العاصمة.

وفعلا فإن العلاقات الجزائرية الإنجليزية كانت تشهد تدهورا كبيرا حتى قبل سنتي 1678م، حيث استمرت الحرب بين الطرفين، فيحصي بلايفر "أنّ الجزائريين استطاعوا أسر خمسة أو ستة آلاف بريطاني، واستولوا على 350 سفينة في الفترة الممتدة بين سنتي 1674-1681م[220]، في حين تؤكد قائمة نشرها آرثر هاربرت في لندن سنة 1682م، أن "الجزائريين قد استولوا على مائة وثلاثة وخمسين سفينة بريطانية خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1677-1682م، وأحصى كاتب مجهول أن الإنجليز خسروا نصف مليون باوند بين سنتي 1679-1682م[221]، وفي المقابل استولى القبطان البريطاني توماس هارمين على سفينتين جزائريتين شهر أوت وسبتمبر سنة 1677م، كما استولى الانجليز في 28 أكتوبر من نفس السنة على سفينة حرب جزائرية ذات الثمانية والثلاثين مدفعا بالقرب من جبل طارق، وتمكنوا أيضا من قتل مائة وستين جزائريا كانوا على متن سفينة جزائرية أخرى في المتوسط".[222]

ويبدو أنّ الأرقام السابق ذكرها تثبت بما لا يدع مجالا للشّك أن "الإنجليز كانوا في حاجة إلى السلم أكثر من الجزائريين أنفسهم، ولو أن الديوان سعى هو الآخر إلى تثبيت السلم مع الإنجليز؛ خاصّة وأن العلاقات الجزائرية الفرنسية كانت تعيش أسوء فتراتها.

وفعلا أرسل الملك البريطاني الأميرال أرثر هاربرت إلى الجزائر، أين استطاع إقناع الداي بابا حسن بتوقيع السلم يوم 10 أبريل سنة 1682م، وافق البريطانيون من خلاله على دفع الضريبة مقابل الحصول على الحماية لتجارتهم في البحر الأبيض المتوسط.[223]

كانت هذه المعاهدة ذا أهمية بالغة لكلا الجانبين، فالنسبة للبريطانيين فقد وفر الاتفاق قدرا من الأمن لسفنهم التجارية في البحر الأبيض المتوسط، وساعد على ترسيخ بريطانيا كلاعب مهم في التجارة الدولية، وأما الجزائريون فقد احتاجوا لهاته المعاهدة لعدم قدرتهم على مجابهة قوتين عظيمتين مثل فرنسا وبريطانيا في الآن نفسه؛ خاصّة وأنّ الحرب الجزائرية الفرنسية لم تضع أوزارها بعد وستستمر لسنين لاحقة.

1-1- الحملات الفرنسية على الجزائر 1682-1684م.

بعث الفرنسيون برسولين إلى الجزائر لأجل التفاوض مع الداي سنة 1679م، وفعلا اتفق الطرفان على إطلاق سراح أسرى الجانبين سنة 1681م، غير أن الفرنسيين نقضوا العهد ولم يطلقوا أي من الجزائريين، حيث أرسلوا الكثير منهم عبيدا على متن السفن الفرنسية المتواجدة في المشرق.

أعلن الجزائريون الحرب على فرنسا في 18 أكتوبر سنة 1681م، واستولوا على تسعة وعشرين سفينة فرنسية وثلاثمائة أسير، ورد الفرنسيون بإرسال حملة عسكرية على العاصمة

الجزائرية، "وما إن بلغ مسامع الداي التريكي عن الاستعدادات الفرنسية حتى همّ إلى اعتزال الحكم، والفرار نحو طرابلس الغرب، حيث أوكلت مهمة قيادة الجزائر إلى الداي بابا حسن سنة 1682م".[224]

وقد استغل الفرنسيون الوضع الذي كانت تمر به الجزائر، بسبب الطاعون الذي اجتاحها، بالإضافة إلى انفجار مخزن البارود بقلعة باب الواد سنة 1681م، الأمر الذي أدى إلى هدم أربعمائة منزل.

فأرسلوا دوكين في حملة إلى الجزائر، حيث غادر ميناء طولون في 12 جويلية سنة 1682م، على رأس عمارة من ستة وثلاثين سفينة حربية، واستمر في قصف تحصينات المدينة في الفترة الممتدة بين الـ 30 أوت وإلى غاية الـ 04 سبتمبر، وقد كان القصف مدمرا جدا تحطّمت من جرّائه مئات المنازل، وتكدّست الجثث تحت الأنقاض في الشوارع وعلى الشاطئ، كما وقعت قنبلتان على المسجد الكبير والمسجد الجديد، وعمّ الرعب كل أرجاء العاصمة".[225]

لم يحصل دوكين على أي ترضيات من السلطات الجزائرية، ولهذا قفل راجعا إلى فرنسا دون أن يحقق الأهداف المرجوّة، ليعود مجددا في 18" جوان من السنة الموالية على رأس ستين سفينة حربية، واستمر القصف إلى غاية الـ 27 من نفس الشهر، حين أرسل الداي بابا حسن مبعوثا جزائريا برفقة الأب لوفاشي إلى دوكين من أجل التفاوض، غير أن الأخير رفض أي حوار إلا بعد إطلاق سراح جميع الأسرى الفرنسيين".[226]

وافق بابا حسن على الطلب الفرنسي، وأقدم على تسليم ما عدده خمسمائة وخمسين أسيرا دون استشارة الديوان أو رجال البحرية، في الوقت الذي لم يطلق دوكين أيا من الأسرى الجزائريين، حيث يذكر ابن رقية التلمساني "أنّ أهل الجزائر لم يرضوا بهذا الصلح، وأصبح الجميع يتمنى موت الداي فأقدم بعض الأتراك المغامرين على قتله".[227]

عيّن ميزمورتو دايا جديدا خلفا لبابا حسن، وكان أول ما قام به هو مراسلة دوكين يطلب منه إطلاق سراح الأسرى الجزائريين، غير أن الأخير رفض الاقتراح وطالب الجزائريين بالإسراع في دفع الثلاثمائة ريال التي تعهد بها سلفه بابا حسن، غير أن ميزمورتو "أجاب بأنه إن لم يعطه أسارى المسلمين فلا صلح بينهما، فاغتاظ دوكين وقصف المدينة بثلاثمائة وخمسين قذيفة وصاروا يرمون المدينة بالقذائف ليلا نهارا دون توقف مدة ثلاثة وعشرين يوما كاملا، توفي خلالها أربعون جزائريا وانهدم ثلاثمائة منزل".[228]

ولما تأكد الفرنسيون أن القصف لا يثني الجزائريين حتى التجأوا إلى الباب العالي يطلبون من السلطان التدخل، وفعلا وصل دوتورفيل رفقة ممثل السلطان سواحل مدينة الجزائر يوم الـ 02 أبريل سنة 1684م، وبعد مفاوضات استمرت عشرين يوما توصلت الأطراف المعنية إلى توقيع معاهدة سلام مدّتها مائة عام كاملة.[229]

ومثل سابقتها فإنّ هذه المعاهدة لم تستطع الصمود طويلا، فقد قاد الفرنسيون حملة على الجزائر شهر جوان سنة 1686م، "حيث ادعوا أن الحملة جاءت لوقف الهجمات القرصانية الجزائرية على التجارة الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط".

وصل الأسطول الفرنسي سواحل الجزائر العاصمة في الـ 26 جوان سنة 1686م، تحت قيادة الأميرال جين ديستري، رفقة أسطول يتكون من واحد وأربعين قطعة بحرية، "وشرع في قصف المدينة حتى ذهب البعض إلى القول بأن المدينة احتملت عشرة آلاف وأربعمائة وعشرين قذيفة، آذت بنياتها بشكل رهيب، غير أن الحملة سرعان ما أقلعت بعد أن رأت تمسّك الجزائريين برأيهم ورفضهم التوقيع على أي سلام".

ولما علم الفرنسيون بأنّ استمرار الحرب مع الجزائر يعني أضرار مادية لتجارتهم، خاصة وأن الجزائريين كانوا قد وقعوا على معاهدتين مع الإنجليز والهولنديين، الأمر الذي يعني أنهم أصبحوا متفرغين لمهاجمة السفن الفرنسية.

والحق أن التجارة الفرنسية قد تأثرت بشكل كبير نتيجة الهجمات الجزائرية على سفنها التجارية، ولهذا وصل ثمارسيل ممثل الملكي الفرنسي إلى الجزائر مع أوامر بالتوصل إلى اتفاق مع الجزائريين ينهي الخلاف القائم، وفعلا وقعت المعاهدة يوم 24 سبتمبر سنة 1689م".[230]

2- قرن سلم 1690-1770م.

كانت الحملة الفرنسية على الجزائر آخر الحملات الأوربية الكبرى على الجزائر طيلة الفترة الممتدة بين سنتي 1690-1770م، حيث عملت جميع الدول الأوربية على استئمان جانب دولة الجزائر من خلال السعي إلى توطين السلم مع داياتها.

استغل الأتراك الوضع الخارجي من أجل إعادة تشكيل وتوحيد الأقطار الجزائرية، وقبل التطرق إلى موضوع الوحدة وما سينجر عنه من صراع مع الاحتلال الإسباني المتواجد في وهران والمرسى الكبير، وجب علينا الإشارة إلى الحملة الجزائرية على المغرب سنة 1688م، والحقيقة

أن الحملة السابقة لم يرد ذكرها في أي من المصادر العربية المعاصرة للفترة، وإنّما جاء ذكرها على لسان الأسير بروك في مذكراته الشخصية، فيذكر عن سبب الحملة قوله: "لقد بعث سلطان المغرب برسالة إلى الجزائريين يقترح فيها عليهم عقد صفقة تخصّ شراء الأسرى من أجل إنهاء مشاريعه العالقة، ولهذا فإذا أراد الجزائريون بيع أي منهم، فإنّه مستعد لشراء الأسير الواحد مقابل مائة وخمسين دولارا... فأرسل الجزائريون ثلاثمائة أسير فرنسي إلى تطوان، غير أن الملك المغربي رفض دفع المبالغ التي وعد بها وطرد الوفد الجزائري المرافق للأسرى".[231]

وما إن بلغ الخبر مسامع الجزائريين حتى "جهّزوا حملة قوامها خمسون ألفا من الجنود، وغزوا المغرب حتى بلغوا حصون مدينة تازة، وفي الجهة المقابلة أرسل مولاي إسماعيل ابنه للقاء الجزائريين، غير أن الأخير مني بهزيمة ساحقة، وارتد الكثير من جنده عن الجيش المغربي وانضموا إلى الجزائريين، وما إن وصلت أنباء الهزيمة إلى والده، حتى أقبل على الأسرى المسيحيين ونادى فيهم يحثّهم على الالتحاق بجيشه مقابل الحرية، لكن الرياح لم تسر بالشكل الذي يبتغيه الملك، حيث "تلقى الجيش المغربي هزيمة أخرى جعلت مولاي إسماعيل يقبل بالشروط الجزائرية، حيث منحهم ثمانية وأربعين بغلا محمّلة بالذهب وأحصنة وأثاثا تبلغ قيمته مائتي ألف كراون".[232]

ويبدو أن الملك المغربي مولاي إسماعيل قد ساءه فعلة الجزائريين، ولهذا قرر الرد عليهم من خلال استغلال الهجوم التونسي على قسنطينة، "فجعل ابنه مولاي زيدان على رأس جيش وأعطى له الأوامر بغزو تلمسان التي احتلها شهر سبتمبر سنة 1700م، فهادنه الجزائريون من

أجل التفرغ لتونس"[233]، غير أن مولاي إسماعيل لم يشبع نهمه سقوط مدينة واحدة في يده، فكبرت أطماعه وقرر عزل ابنه وقيادة حملة على الجزائر بنفسه شخصيا فخرج على رأس جيش تكون من اثنا عشر ألف جندي وذهب آخرون إلى التأكيد بأن مولاي إسماعيل ترأس خمسين ألف جندي، في حين لقيه الداي مصطفى على رأس جيش لم يتجاوز عدده السبعة آلاف جندي، لكن ورغم ميلان ميزان القوى لصالح المغاربة إلاّ أن الجزائريين وعلى قلّة عددهم استطاعوا إبادة الجيش المغربي في أربع ساعات فقط، حتى أن الملك المغربي نالته جروح كثيرة كادت تودي بحياته كما وقع فرسه أسيرا لدى الجزائريين حيث عرض على الملك الفرنسي[234]، وقد رجع الأتراك قافلين إلى العاصمة وهم يحملون ثلاثة آلاف رأس من رؤوس الجند المغاربة.[235]

ولم يكد يفرح الجزائريون بانتصارهم حتى ضرب الطاعون البلد مجددا سنة 1701م، وأودى بحياة خمسة وأربعين ألفا من الساكنة المحلية حسب تقرير كتبه القنصل الفرنسي.[236]

أصبح الجزائريون يفكرون جديّا في إعادة فتح وهران، خاصة وأنّ الأمور قد استقرت لهم فيما يتعلق بالعلاقات مع أوربا وكذا العلاقات مع الجيران، حيث وقعوا السلم "مع الفرنسيين سنة 1686م، وجدّدت المعاهدة الجزائرية الإنجليزية سنة 1701م"[237]، كما وضعت الحرب الجزائرية التونسية أوزارها سنة 1702م.[238]

قاد حاكم وهران حملة عسكرية على قبائل بني عامر المتحالفة مع الأتراك سنة 1703م، وقتل ثمانين شخصا وأسر مائتين وخمسين آخرين، غير آبه للسلم الذي وقعه حاكم وهران مع الداي مصطفى سنة 1701م، وهكذا بدأت العلاقات بين الجانب الاسباني والجزائري في التصدع إلى أن قرر الداي محمد بكداش (1707-1708م) تحرير وهران، فأرسل صهره حسن أوزن رفقة باي الغرب مصطفى بوشلاغم فاتحا على وهران سنة 1708م.[239]

استطاع الجيش الجزائري تفجير أكبر حصن في المدينة، واقتحام أسوارها يوم 16 أفريل سنة 1708م، وبعد معارك ضارية تمكنوا من إجبار الحامية الاسبانية على الاستسلام، وساقوا 1461 أسيرا نحو العاصمة الجزائرية.[240]

ومع أن الداي محمد بكداش كان سببا في فتح وهران، إلا أن الانكشارية ثارت ضدّه واغتالته بسبب تأخر دفع جراياتها سنة 1709م وعيّنت مكانه الباشا إبراهيم دايا جديدا والحق أن الكثير من الدايات سيكون مصيرهم الاغتيال، حيث سيصبح فكر الاغتيال والثورة هو الغالب في صفوف الانكشارية حين لا يعجبهم الداي أو يتأخر دفع جراياتهم.

لم يتمتع إبراهيم طويلا بنشوة الحكم حيث قتله أحد الجنود في 14 أوت من نفس السنة وخلفه علي شاوش، "الذي اشتهر بالحزم والنزاهة وقوّة الشخصية، ولهذا سارع إلى رفض نزول

الباشا ممثل السلطان العثماني على أرض الجزائر، فانسحب الأخير وقذفت به العاصفة إلى شواطئ القلّ أين توفي هناك سنة 1711م".[241]

ومثل سلفه فقد حاول الجند اغتياله في مرات مختلفة، حيث استغل "أحد القادة الزلزال العنيف الذي هزّ مدينة الجزائر سنة 1712م وألحق دمارا كبيرا بالمنازل، وراح يسعى لإقناع الجند بأن الزلزال لن يتوقف إلّا بوفاة الداي"، لكن علي شاوش توفي في النهاية بسبب المرض، حيث "تشير بعض المصادر إلى أن بسبب وفاته يرجع إلى الحمى في حين رأى ابن المفتي أن الوفاة مردّها إلى الاسهال".[242]

ولم يمض على زلزال سنة 1712م إلا بضع سنوات حتى ضرب الجزائر زلازال جديد في عهد الداي محمد أفندي سنة 1716م، وقد كان مدمرا بشكل مخيف، خاصة مع قدم البنية التحتية لمنازل القصبة والعاصمة التي تأثرت نتيجة التقلبات السياسية وانفجار مخازن البارود.

وتشير بعض التسجيلات إلى أن الزلزال قد استمر خلال الفترة الممتدة بين شهري فيفري إلى ماي سنة 1716م، وهدم مائتين وأربعة منازل بالإضافة إلى أربعة مساجد، وبلغ صدى تدميره الثلاثة كيلومترات كاملة[243]، ولم تتوقف الزلازل عن ضرب مدينة الجزائر على طول القرن الثامن عشر حيث تعرضت المدينة لهزّات متتالية سنوات 1727م و1778م و1779م.

استغل الاسبان الوضع العام في الجزائر العاصمة سنة 1727م، وما أحدثه من دمار في المدينة وقادوا حملة على وهران سنة 1732م وتمكنوا من فتحها.، وقيل "أن الداي كرد عبدي قد

حزن حزنا شديدا نتيجة سقوط وهران في يد الإسبان، وامتنع عن الأكل والشرب إلى أن توفي في 03 جويلية سنة 1732م.[244]

2-1- توتر العلاقات الجزائرية التونسية:

إنّ دايات الجزائر وبمجرد استقلالهم عن الباب العالي، حتى بدؤوا يفكرون بشكل جدي في استعادة مجدهم الذي بلغ الآفاق خلال عهد البايلربات حين كانت تتبع تونس وطرابلس الغرب إلى دولة الجزائر الكبرى.

لقد شهدت العلاقات الجزائرية التونسية توترا طيلة القرن الثامن عشر، فقد تمكّن الجزائريون من أخذ الباي إبراهيم الشريف أسيرا إلى الجزائر سنة 1705م، فأسرع التونسيون إلى تعيين حسين بن علي بايا جديدا خشية هجوم جزائري مفاجئ على الأقطار التونسية.[245]

ولم يهنأ التونسيون كثيرا بهذا التنصيب حتى ثار ابن أخ الباي علي، مستعينا بأتراك الجزائر فاستولى على العرش ثم قتل عمّه سنة 1740م[246]، وبمجرد اعتلائه السلطة أعلن استقلاله عن الجزائر، وفي المقابل لجأ أبناء عمه إلى الجزائر أملا في الحصول على الدعم ضد ابن عمّهم.

وفعلا فقد استغل الجزائريون لجوء أبناء علي بن الحسين إليهم، بالإضافة إلى سوء إدارة الباي علي وجوره، حين "ثارت في عهده الانكشارية مرّتين في سنوات 1743م و1752م، أين ساءت طريقة حكمه حتى مؤيديه الذين انتظروا الفرصة للانقلاب عليه، وفي المقابل زادت شعبية

ابنا عمّه محمد وعلي الفارين إلى الجزائر، واللذان رافقا الحملة الجزائرية على تونس، ودخلاها رفقة الجزائريين في 30 سبتمبر سنة 1756م".[247]

وهكذا آلت السلطة إلى أبناء الحسين محمد وعلي ومحمود، ثم من بعدهم إلى حمودة ابن علي ابن الحسين، الذي كان مولده في الجزائر من أمّ علجية، وقد اعتلى سدّة الحكم بتاريخ الـ 31 ماي سنة 1782م[35].ويصفه ابن أبي الدينار بقوله: "وحال هذا الأمير... ثاقب في الفكر قوي الحزم، صادق العزم، ثابت الجنان... وكان غيورا على الوطن، محبا لأهله... يعفو عن الزلة ... مولعا باستكثار الجند من الترك والالتحام بهم والتودد لهم".[248]

وشهدت فترة حكمه اشتعال نار الحرب بين الجزائر وتونس مرتين، كانت الأولى سنة 1806م، وأمّا الثانية فنشبت سنة 1806م.[249]

2-2- الجزائر ودول شمال أوربا (الدنمارك والسويد) 1747-1775م:

جاء في إحدى التقارير الفرنسية أواسط القرن السابع عشر "أن التجارة البحرية السويدية تحتلّ المرتبة الخامسة في أوربا، خلف كلّ من بريطانيا، فرنسا، الأراضي المنخفضة، والدنمارك، ومتقدّمة بذلك عن كلّ من الإسبان والصقليتين (مملكة نابولي وصقليّة).[250]

وقد أدى ارتفاع أسعار الملح في كلّ من ستيبل ولشبونة إلى دخول كل من الدنمارك والسويد إلى البحر المتوسط، الذي يتميّز بالعنف ودوام الحروب البحرية ما جعل التجارة البحرية لهاتين الدولتين عرضة لهجمات البحرية الجزائرية.[251]

إن هذا المشكل الطارئ الذي اعترض البحريتين جعل رجال الدولتين في حيرة من أمرهم، خاصة وأنّ كلا الدولتين لا تمتلكان القوة البحرية اللازمة لمواجهة التحديات العسكرية الجديدة، ولهذا سارع قادتهما إلى إيجاد حلّ سلمي يرضي جميع الأطراف، "فأسس السويديون مكتبا سموه "إكسترا ليشنتن من أجل جمع أموال الفدية وتحرير الممتلكات السويدية التي استولى عليها رجال البحر الجزائريون والمغاربة سنة 1723م، حيث فرضت الضرائب على الصادرات والواردات السويدية، وتخصص عائداتها لتحرير الأسرى والممتلكات الخاصة والعامة السويدية.[252]

لم يتوقف طموح السلطة السويدية عند هذا الحد ولم تجنح إلى الاعتماد المفرط على مكتب إكسترا ليشنتن بل تأثّرت بالسلم الذي وقعه الهولنديون مع داي الجزائر سنة 1726م، "وأرسلوا لهذا الغرض اليهودي والتاجر جورج لوجيي من أجل التمهيد لعملية التفاوض، وفعلا أرسلوا سنة 1729م جون فو إتفال إلى الجزائر، أين تمكن من توقيع معاهدة مع الجزائريين شهر أبريل من نفس السنة، وكحسن نيّة بعث السويديون بسفينيتين إلى الجزائر تحمل على متنها أربعين مدفعا، وثمانمائة سيف وألفا وستمائة قذيفة مدفع والصواري والمراسي، ما مجموعه واحد وعشرون ألفا ريكس–دولار، وردّ الداي بإرسال أسدين وأزواجا من الحيوانات المتوحشة الأخرى، كما قام بأطلاق سراح الأسرى السويديين.[253]

وعلى عكس أشقائهم السويديين فقد تأخر الدنماركيون في التوصل إلى اتفاق ينهي العداوة مع الدول المغاربية، "ولم يحدث توافق في الرؤى بين الضفتين إلاّ في الفترة الممتدة بين سنتي 1747-1753م، حين عقدت الدنمارك بعض المعاهدات مع سلطات المنطقة، وهكذا استطاع الدنماركيون تجنّب وقوع مواطنيهم أسارى، حيث تشير الإحصاءات أن عشرين ألف رحلة بحرية دنماركية جرت وراء رأس فينستر بين سنتي 1747-1807م، أين توّجه منها أكثر من خمسة عشر ألف رحلة إلى البحر المتوسط".[254]

وقد اغتبط الدنماركيون اغتباطا شديدا بهاته المعاهدة، فأرسلوا إلى الجزائر على جناح السرعة أربعين مدفعا عاديا وأربع مدافع هاون وعشرين ألف كرة مدفع وستة آلاف قنبلة ومعدّات البناء.[255]

غير أن المعاهدة السابقة لم تعد الاستقرار إلى العلاقة بين الجانبين، فقد كانت السفن الدنماركية هي المفضلّة دائما لدى الجزائريين كونها سفنا تجارية غير مسلّحة، على عكس السفن الفرنسية والبريطانية والهولندية.

وانطلاقا مما سبق فقد رأت الحكومة الدنماركية ضرورة قيادة حملة على الجزائر ترغمها على توقيع السلم وتثبيته، وفعلا وصل أسطول دنماركي أمام السواحل الجزائرية في جويلية سنة 1770م، تكوّن من أربعة سفن عالية ذات السبعين مدفعا وفرقاطتين ذات الأربعين مدفعا، تحت قيادة الأميرال الكونت دوكاسي حيث استمر القصف ثلاثة عشر يوما دون انقطاع[256]، لكن دون

تحقيق أي نتائج مرجوّة، وهذا ما اعطى الشرعية الكاملة لإعلان الجزائريين الحرب على الدنمارك واستباحة سفنها.

3- مرحلة الانهيار والسقوط 1775-1830م.

شهدت الفترة الأخيرة من عهد الدايات انهيارا فعليا للجزائر، وذلك بعد انتشار الفساد في كل أجهزة الدولة، خاصة بعد تراجع عائدات الغنائم البحرية، ما جعل الأتراك يحاولون تعويض الخسائر برفع الضرائب والجباية، الأمر الذي أنتج ثورات كادت تعصف بالنظام العثماني في الجزائر.

ولم تنتهي مشاكل السلطة التركية عند هذا الحد بل واجه الدايات حملات بحرية أوربية شديدة البؤس، وبلغ بعضها من الشدّة أنّها ألحقت أضرارا بالغة على العاصمة حتى جعلت من الصعب إعادة ترميمها.

أرسل الاسبان حملة على الجزائر تكوّنت من خمسمائة سفينة وحوالي عشرين ألف جندي سنة 1775م، وأوكلت مهمة قيادة الجيش إلى الآيرلندي الأميرال أورلاي، غير أن هاته الحملة قد فشلت فشلا ذريعا، وخلّفت ورائها ألفي قتيل إسباني، حتى أصبح أورلاي يكنّى "بصاحب الحظ السيّء".[257]

أعاد الاسبان الكرّة في سنة 1783م، حيث بعث الامبراطور الاسباني بالقائد أنطونيو دي بارثيلو أملا في إخضاع الجزائر، وفعلا وصل الأسطول قبالة السواحل الجزائرية يوم 29 جويلية

من نفس السنة أين باشر القصف الذي استمر إلى غاية الـ 09 أوت[258]، غير أن الحملة مثل سابقتها لم تحقق الأهداف المرجوّة منها، لينسحب الأسطول في النهاية قافلا إلى إسبانيا.

ولأن الإسبان لم يستسيغوا الهزيمتين السابقتين فإنّهم أصروا على إعادة الكرّة مجددا على الجزائر سنة 1784م، وقد بلغ أنطونيو دي بارثيلو سواحل الجزائر يوم الـ 10 جويلية من نفس السنة، على رأس جيش تكوّن من أكثر من مائة وسبعين سفينة ، حيث تولى "البابا بيوس السادس تحمّل جميع تكاليف الحملة".[259]

لكن الحملة واجهت صعوبات منذ بدايتها فقد أصابت شضيّة مدفع سفينة القائد بارثيلو وأدت إلى غرقها، ورغم تجاسره على نفسه محاولا التقليل من أهمية الحادث، إلا أن الرياح المعاكسة قد أجبرت الأسطول الاسباني على الانسحاب والعودة إلى قرطاجنة يوم الـ 21 جويلية سنة 1784م، حيث أطلقت المدافع الاسبانية عشرين ألف قنبلة على العاصمة[260]، دون أن تتمكن من إجبار الجزائريين على النزول عند الطلبات الإسبانية.

كان لفشل الحملات السابقة أثره البالغ في تشجّع الجزائريين لاستعادة وهران من يد الإسبان، مستغلّين "الدمار الذي ألحقه الزلزال بالمدينة يومي 08 و09 أكتوبر سنة 1790م"[261]، وفعلا أعطيت الأوامر للباي محمد بن عثمان الكبير لحصار وهران، والذي خرج على رأس "مائة

فسطاط"[262] كما يصف ذلك الزياني، في حين يذهب جورجوس إلى "أنّ الباي عثمان قد جمع حوله خمسين ألفا من الجند".[263]

فحاصر وضيّق على وهران من كلّ جانب، حتى أن الاسبان لما ضاقت عليهم الأحوال ولم يجدوا مخرجا، وانهارت همّة الوقوف في وجه الباي عثمان، سارعوا إلى إرسال مبعوث إلى إسبانيا يطلب الإسراع في التفاوض مع الجزائريين، وفعلا اتفق الطرفان على هدنة لمدة شهر اعتبار من 20 مارس سنة 1791م، غير أنّ الاسبان لم يهنؤوا طويلا بهذا الاتفاق حيث اندلعت الحرب مجددا في ماي من نفس السنة، بعد وصول تعزيزات إلى الباي محمد من الجزائر العاصمة تحثّه على مواصلة الحرب.[264]

وأمام تزايد الهجمات الجزائرية على أسوار وهران وإنهاك الحامية الإسبانية، وافق الإسبان على الانسحاب من المدينة، ووقعت معاهدة بين الطرفين في الجزائر العاصمة يوم الـ 12 سبتمبر سنة 1791م، ثم أرسلت إلى مدريد أين أعطى الملك شارل الرابع موفقته عليها يوم الـ 12 ديسمبر سنة 1791م، في حين خرجت آخر سرية من الحامية الإسبانية المتواجدة في وهران شهر فيفري سنة 1792م.[265]

لم يكن فتح وهران سوى الشجرة التي تغطي الغابة، ذلك أن الوضع الداخلي كان كارثيا بشكل لا يصدق، خاصة مع انتشار الظلم والتجبر وسط الأولغارشية الحاكمة، حيث انحدرت

السلطة إلى أرذل المنازل، ولم يعد حتى الحكام والبايات آمنين في أبدانهم ولا أموالهم؛ فما بال الرعية المغلوبة على أمرها، "ففي أواخر جوان قتل أحد الجنود التاجر اليهودي بوشناق بعد أن ناداه "ملك الجزائر"، فعمت الفوضى في المدينة وقتل الكثير من اليهود، ولمّا خشي الداي مصطفى على رأسه رخّص للجند بنهب المدينة أملا في السماح له باللجوء إلى المشرق غير أن الجند قاموا عليه وقتلوه"[266]، وأما باي الغرب بوكابوس الذي أسرف في "سفك الدماء والقتل فإن نهايته كانت سيّئة جدا بعد أن رفض المشاركة في الحرب الجزائرية التونسية، حيث أرسل الداي في طلبه الآغا عمر الذي سلخ رأسه وهو حيّ وملأ بطنه تبنا بعد أن بقره وعلّق جسده على أحد الأعمدة زمنا ثم قتل أولاده".[267]

وقد استمرت مهازل الأتراك ولم تتوقف عند حد معيّن، "فقد عيّن الانكشارية الداي الإسكافي وصانع الأحذية أحمد باشا، غير أنّهم سرعان ما انقلبوا عليه وقاموا بقتله في شوارع المدينة، ثم اتفقوا على أن يدخلوا قصر الجنينة وينصبوا أول من يصادفهم داخل أسوار القصر دايا على الجزائر، وكان أول من صادف الجند هو علي غسّال الموتى، الذي اعتلى العرش غير أنه لم يمضي على تنصيبه سوى أربعة أشهر حتى عادوا واغتالوه مثل سابقه".

والحق أن تصرفات الإنكشارية وجور الدايات والبايات والأقلية التركية، لم تستسغه الجموع الشعبية، حيث عمّت الثورة جميع ربوع الوطن خلال الفترة المتأخرة من الحكم العثماني تنديدا بالأوضاع السائدة، فاندلعت ثورة ابن الأحرش سنة 1803م وعمت كامل تراب الشرق الجزائري،

وقتل نتيجتها الباي عثمان ولم تنتهي إلا بعد التحاق ابن الأحرش بثورة الدرقاوي التي سادت الغرب الجزائري.

كما أعلن التيجاني الثورة ضد حسن موسى باي بايلك الغرب سنة 1826م بسبب جوره وكثرة قتله للعلماء والرعية، وقيل عن ظلمه "أن الباي قد أطلق يد قوّاده وعمّاله للتصرّف بكلّ حريّة في الرعية، حتى أن الباي كان إذا توفي أحد المواطنين صيّر نفسه وريثا له"[268]، وقد استمرت الحرب سجالا بين الجانبين وذلك إلى غاية سنة 1827م، عندما استطاع الباي قتل التيجاني وجميع أتباعه ولم يذر منهم أحدا على قيد الحياة.

ولم يكن الوضع الخارجي أهون ولا أقل مأساة من الوضع الداخلي، حيث يمكن أن نلاحظ في الجدول "التالي كيف تراجعت عائدات الغنائم بشكل مخيف خلال أواخر عهد الدايات":[269]

نسبة العائدات البحرية في الاقتصاد الجزائري 1798-1815م

السنوات	إجمالي المداخيل	العائدات البحرية	نسبة المداخيل البحرية
1799-1798	**3.370.000فرنك**	**870.000 فرنك**	**%25.8**
1800-1802	2.770.000 فرنك	270.000 فرنك	%9.7

1804-1810	2.625.000 فرنك	125.000 فرنك	%4.8
1811-1815	3.125.00 فرنك	625.000 فرنك	%20

إن الجدول أعلاه يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن البحرية الجزائرية قد تأثرت تأثرا بالغا نتيجة تراجع عائدات الغنائم البحرية مع العلم أنه العائدات البحرية طالما مثّلت الجزء الأكبر من موارد الاقتصاد الجزائري.

وهكذا فإنّ الوضع العام قد أثر بشكل مباشر على سيرورة العلاقات الجزائرية الأوربية، حيث تشجعت العديد من الدول الغربية في إعلان الحرب على الجزائر، "ففي سنة 1815م قاد الأسطول الأمريكي تحت قيادة ستيفن ديكاتور حملة على الجزائر، حيث التقى في طريقه بالأسطول الجزائري الذي كان يقوده الريس حميدو، فتمكن الأمريكان بعد معارك ضارية مع الجزائريين من قتل الرايس حميدو يوم 17 جوان سنة 1815م، وأسر عدد كبير من البحارة الآخرين".[270]

وصل الأسطول الأمريكي السواحل الجزائرية يوم 29 جوان، ورفع العلم الأبيض كإعلان عن الرغبة في التفاوض، وفعلا تم توقيع معاهدة سلام بين الطرفين، حيث قدّم الجزائريون تعويضات للأمريكان قدّرها عشرة آلاف دولار، وفي المقابل أعاد ديكاتور السفن الجزائرية التي أسرها رفقة جميع طواقمها.

والحق أن الحملة الأمريكية ورغم الأذى الذي ألحقته بالجزائر إلاّ أنها لا تعادل الأضرار التي سيأتي ذكرها عن الحملة البريطانية سنة 1816م، تحت قيادة الأدميرال اللورد إكسموث، "فبعد انعقاد مؤتمر فيينا أواخر سنة 1814م وأوائل سنة 1815م اتفقت الأطراف الأوربية المجتمعة على إيقاف ما أسموه بالقرصنة المغاربية"، ولهذا الغرض أرسل اللورد إكسموث على رأس أسطول بريطاني نحو السواحل الجزائرية.

كان القصف مدمرّا ومرعبا حيث استمرّ عشر ساعات ممتالية حتى قيل أن الإنجليز أطلقوا على الجزائر أربعين ألف مدفع[271]، مخلفا خمسمائة قتيل وجريح[272]، في الوقت الذي يؤكد اللورد إسكموث "أن عدد القتلى والجرحى قد تراوح بين الستة آلاف أو السبعة آلاف قتيل، وقدرت الخسائر الجزائر بحوالي مليون جنيه إسترليني. [273]

لم تقم للجزائر بعد هاته الحملة قائمة، ولا استطاعت أن تعيد تجديد أسطولها ولا حتى تحصيناتها أو واجهتها البحرية، ولعل ما يجعل المطلع في الموضوع يستاء هو ذلك الفساد والصراع على السلطة الذي لم يتوقف نتيجة كل هاته الحملات، حيث لم يقف أي داي على إعادة إصلاح الوضع وتدارك الخلل، ففي الوقت الذي كان الأسطول الجزائري يتكون من الشباك والغلياره والغراب والغليوطة؛ فإنّ هذا النوع من السفن كان يستخدم في أوربا لصيد الأسماك، و"تثبت الحملة التي قادها الإنجليز ببارجتين من نوع السفن العالية سنة 1824م مدى الضعف

الذي بلغته الجزائر، حيث استطاع الانجليز بهاتين السفينتين فقط فرض حصار على الجزائر العاصمة دام ستة أشهر كاملة".[274]

إن كل هاته الأحداث واجتماعها أدت إلى انهيار الجزائر في النهاية، حيث سقطت بيد الفرنسيين سنة 1830م.

4- مميزات عهد الدايات:

- أدى الضعف الذي مسّ البحرية الجزائرية إلى نموّ "طائفة اليولداش بقوة على حساب الإنكشارية التي انهارت خاصة وأن الأناضول لم يعد يرسل بحارة أشداء بل أصبح الوافدون في أغلبهم من القتلة والمجرمين.[275]

- كان الداي يحكم مدى الحياة رغم أنه من النادر أن يصادف الباحث دايا أنهى مسيرته في الحكم دون أن يُقتل أو يعزل.

- استمر حكم الدايات مائة وتسعة وأربعين سنة حيث امتد بين سنتي 1671-1830م، وبهذا فهو أطول عهود التواجد العثماني في الجزائر.

- كان أول داي حكم الجزائر سنة 1671م هو الحاج محمد باشا، ورغم قوة الداي الجديد وعدم استئثاره بالحكم لنفسه؛ إلاّ أن الحاكم الفعلي للجزائر كان صهره بابا حسن.[276]

- إنّ للداي القوة الكاملة نظريا في إدارة البلاد رغم أن الديوان هو الذي كان ينتخب الداي نفسه، كما أنّ الديوان يعتبر المستشار الأول للحاكم، وهذا لكيلا يشعر الداي بالقوة المطلقة حين إدارة

مقاليد الحكم؛ لكن الواقع يثبت أن الداي كان يرجع في استشارته دوما لوزرائه مثل: الخزناجي وآغا المحلة ووكيل الخرج... إلخ، وقد شكل هؤلاء الوزراء ديوانا منافسا للديوان الأكبر.[277]

– انتشار الظلم والتعسف ضد أهل البلد؛ خاصة من قبل البايات، مثل: باي بايلك الغرب بوكابوس محمد بن عثمان الذي قتل السائح بن خضرة رئيس قبيلة سويد بالمسدس، وأحدث البشائع في الثوار الدرقاوة، حتى أن الرجل كان إذا ادعى محبة الدرقاوي قام فيه وقطع رأسه في الحين، كما كان يقطع رأس كل من يعارضه،[278] ويذكر الزياني عن ظلم الأتراك أن الدرقاوي لما ذهب لقائد الطريقة الدرقاوية في المغرب، قال له: "إن بوطننا قوم يقال لهم الترك، لا شيء لهم من دعائم الإسلام ويظلمون الناس ولا يعبؤون بالعلماء والأولياء..."[279].

– كثرة الثورات التي أرهقت سلطة الدايات وأدت إلى بداية تفكك الدولة وانهيارها، كما أشرنا سابقا بسبب الظلم والتعسف، مثل: ثورة ابن الأحرش 1803م وثورة الدرقاوي سنة 1802 وثورة التيجاني سنة 1826م.

– انتشار فكر قتل الدايات لأسلافهم وتولي السلطة بدلا عنهم، حتى بلغ الامر بالديوان إلى أنه لم يجد من يحكم الجزائر، ففي سنة 1808م ثار الانكشارية ضد الداي أحمد ودخلوا قصر الجنينة وأطلقوا عليه النار ثم قطعوا رأسه، ولأن جميع القادة رفضوا تولي المنصب فإنّه بقي شاغرا، ولذا قرر الانكشارية الدخول إلى القصر وأول من يصادف طريقهم يعيّنونه دايا على الجزائر، فالتقوا مع غسال الموتى علي فنصبوه دايا على الجزائر، ولم يمضي على توليه الحكم سوى أشهر حتى عاث في البلاد فساد وظلما، فقررت الانكشارية اغتياله مجدد وفعلا قتل علي الغسال سنة

1809م.[280] ولم تقتصر عمليات القتل هاته على الدايات فقط بل كان للبايات نصيب منها، حيث قتل الكثير منهم من قبل الراغبين في السلطة أو لكثرة جورهم، " فبعد أن رفض الباي بوكابوس الالتحاق بالحرب الجزائرية التونسية، أعطى الداي أوامره للآغا عمر بقتله، فسار إليه في جمع من الجيش التركي فأقدم في البداية على اغتيال جميع أبنائه ثم عكف إليه فقتله وملأ بطنه تبنا وأرسله إلى داي الجزائر.[281]

– تحول جنود البحرية الرياس من مقاتلين وغازين للسواحل المسيحية إلى مرتزقة تبحث في الكثير من الأحيان على المال والغنائم، وهذا حتما ما أثر على الاقتصاد الجزائري.

– تناقص عدد الأسرى أواخر عهد الدايات بشكل كبير، فبعد أن كان عددهم الآلاف خلال القرن السابع عشر لم يبقى في الجزائر "سنة 1830م سوى 120 أسيرا".[282]

– إن نظاما كان يقوم على عائدات الغنائم لابد له أن ينهار في يوم من الأيام، وهذا ما حدث عندما تراجعت عائدات الغنائم البحرية أواخر العهد العثماني، أين بدأ الاقتصاد الجزائري في الانهيار بشكل رهيب، حيث كثرت الثورات والانقلابات داخل دواليب السلطة كما رأينا.

– في الوقت الذي كانت تتطور فيه السفن الحربية الأوربية، وذلك باختراع مدفع الهاون والسفن العالية *Ship of The Line*، كانت الجزائر لا تزال تستخدم سفنا من نوع الغليوطة والشباك والبريك والغراب... إلخ وهي سفن كانت تستخدم خلال هاته الفترة في أوربا بالصيد البحري.[283]

– تمكن الجزائريون من إنهاء الوجود الاسباني على السواحل الجزائرية، وذلك بتحرير وهران سنة 1792م، وتوحيد الجزائر واستقلالها عن أي احتلال أوربي.

المحاضرة السابعة

المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م

1- تركيبة المجتمع الجزائري.

2- العادات والتقاليد.

3- الاحتفال بالمناسبات الدينية.

لقد شهد المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني تنوعا وثراء في التركيبة الاجتماعية والعرقية والدينية، حيث عاش في الجزائر الأتراك والكراغلة والجزائريون واليهود والمسيحيون، ومارس أهل الذّمة طقوسهم الدينيّة بكلّ حريّة، حتى أنّ "أحد الآباء الفرانسيسكانيين لاحظ خلال إقامته في الجزائر أواسط القرن السابع عشر، أن زينة الكنائس الجزائرية تتفوق على كل الكنائس الموجودة في إسبانيا".[284]

1- تركيبة المجتمع الجزائري:

1-1- الأتراك: كان الأتراك المتواجدون في الجزائر عبارة عن أوليغارشية ذا سلطة متنفذة في الحكم والادارة والجيش، يملكون السلطة التنفيذية في اتخاذ جميع القرارات المسيّرة لشؤون البلاد، "حيث ترجع أغلب أصول هؤلاء الأتراك إلى الأناضول، وقد قدّر بوتان عددهم بعشرة آلاف نسمة سنة 1808م".[285]

1-2- الأعلاج أو المهتدون: هم أولئك المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام، ولعبوا دورا بارزا في "تاريخ الجزائر الحديث"، وإنما وضعتهم في المرتبة الثانية قبل الكراغلة لاعتقادي أن هؤلاء المهتدون قد لعبوا دورا يتجاوز دور الكراغلة في الجزائر، ذلك أن منهم الحكّام وقادة البحرية والجيش، وهذا ما لم يبلغه الكراغلة.

وتشير الدراسات إلى أن عدد الأعلاج قد مثّل نسبة معتبرة من الساكنة المحلية في الجزائر، حيث يحصي آلان جيمسون "وجود ثلاثمائة ألف مهتد على أراضي المغرب العربي في الفترة

الممتدة بين سنتي 1550-1770م"[286]، وشغل الأعلاج المناصب القيادية المختلفة، ولعلّ ما يبرز تنفّذهم هو تولي العديد منهم الحكم في الجزائر، أمثال حسن آغا السرديني أول حاكم مهتد على للجزائر، وحسن قورصو الكورسيكي ودرغوث باشا وعلج علي الايطالي ومراد رايس وجعفر باشا وحسن فينزيانو وغيرهم الكثير، وفي المقابل ترقى آخرون ليتولوا قيادة البحرية الجزائرية، ولعل منهم من أصبح قابودان باشا وقائدا أعلى للبحرية العثمانية قاطبة، أمثال علج علي وعلي بتشنين.[287]

1-2- الكراغلة: هم أبناء الأتراك من أمّ جزائرية، ويعني لقب الكرغلي "العبد أو ابن الجندي"[288]، وقد نمى عددهم حتى "بلغ بين سنتي 1816-1824م عشرون ألفا" وفق ما أورده بوتان في مذكراته[289]، في حين يقدم لنا بويي ما عدده خمسة عشر ألف كرغلي كانوا متواجدين في الجزائر سنة 1830م، شارك منهم فيلق يتكون من خمسة آلاف كرغلي في معركة سطاوالي ضد الفرنسيين".[290]

استقر الكراغلة في كامل ربوع الوطن وخاصّة في المدن الكبرى مثل الجزائر العاصمة وتلمسان وقسنطينة وعنابة... إلخ، وقد سمح لهم الأتراك بممارسة التجارة والسيطرة على ملكيات الأراضي الزراعية وممارسة التجارة وتولي العديد من المناصب الإدارية والعسكرية السامية التي

حرم منها الجزائريون أهل البلد، ما جعلهم "أكثر تعاليا وتكبرا أمام أخوالهم الجزائريين، ذلك أنهم طالما اعتبروا أنفسهم أتراكا بالدم".[291]

1-4- الأندلسيون: تعتبر هاته الفئة من المهاجرين من الجزيرة الايبيرية بعد سقوطها تحت ويلات الاحتلال الاسباني والبرتغالي، وقد كان توافدهن تواليا على الجزائر، فمنهم من قدم بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، في حين أن آخرين هجّروا بعد من إسبانيا سنة 1609م.

وقد لعب الأندلسيون دورا بارزا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية الجزائرية، فهناك من التحق بالبحرية أملا في الانتقام من أعدائه الأسبان الذين استباحوا أمواله وأولاده، "حيث تشير التقارير إلى أن أربعة عشر ألف طفل أندلسي قد أخذوا غصبا من أوليائهم وبيعوا عبيدا لكبار القساوسة ورجال الدولة الإسبان"[292]، وعمل آخرون في الهندسة المعمارية والحضارية حيث "يؤكد جون فوس أنّ الداي قد كلّف أحد الموسكيين ببناء قناتين لجلب المياه العذبة من الجبال المجاورة إلى الجزائر العاصمة"[293]، في الوقت الذي برز فيه آخرون في صناعة المنتوجات الحرفية، حيث لم يكن لمنتوجاتهم مثيل ولا منافس.

5- الأشراف: ينسب أفراد هذه الفئة إلى آل البيت، وكانوا يتمتّعون بمكانة اجتماعية ودينية وسياسية، حيث تقلّدوا مناصب القضاء والافتاء والتعليم... إلخ.

1-5- الحضر: يمثّل الحضر الجزائريين أو الساكنة الأصلية للمدن الكبرى، حيث فرض عليهم الأتراك تبعية مطلقة، "فلا يحق لأحد منهم حمل السلاح، كما أن ممتلكاتهم معرّضة للمصادرة بسبب أيّ خطأ قد يقترفونه في حق الأتراك، وهم في مجموعهم يشتغلون كعمال أو تجار".[294]

1-6- البرانية: هي فئة من الجزائريين اضطرتهم ضروفهم إلى التنقل إلى المدن الكبرى نحو المدن الكبرى طلبا للرزق، وقد انقسمت هاته الفئة إلى مجموعات مختلفة، حيث أدّت كل واحدة منها أعمالا تختلف عن الأخرى، ونذكر منها: [295]

- **الأغواطيون:** قدم أغلبهم من مدينة الأغواط وقبيلتي الزناخرة وأولاد نائل، حيث يشتغلون في أعمال الوزن والكيل بالأسواق وبيع الزيت، في الوقت الذي يشتغل بعضهم الآخر في أعمال التنضيف ونقل البضائع.
- **الميزابيون:** هم القادمون من غرداية وبني يزقن وبريان وبني ميزاب وشعابنة وورقلة ممن يتبعون الذهب الإباضي، امتهن الكير منهم في الحمامات والمقاهي وبيع اللحوم.
- **البساكرة:** اشتغل عامتهم في المهن البسيطة مثل تزويد المدن بالمياه وجمع الحطب.
- **جماعة القبائل:** هم الوافدون من مناطق جبلية كجبال جرجرة والبليدة والمدية وتلمسان، وامتهنوا البناء والحر وغرس حقول التين والزيتون وكذا اشتغالهم لدى الأجانب المقيمين بالجزائر.
- **الجيجليون:** حظيت هاته الفئة باحترام كبير من قبل الأتراك الذين منحوها امتيازات كبيرة مثل حق حمل السلاح وارتداء الملابس التركية، وقد اشتغلوا في الأنشطة التجارية مثل: الدباغة وامتلكوا المخابز والعقارات.

1-7- أهل الذمّة:

اليهود: لقد استقر عدد هائل من اليهود في وهران وبجاية والجزائر العاصمة وتلمسان وقسنطينة وتقرت والزاب؛ خاصّة أولئك المهجّرين شبه الجزيرة الأوربية بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، كما هاجر الكثير أغنياء يهود ليفورنو إلى الجزائر خلال القرنين 16م و17م، وقد اشتغل أغلبهم في التجارة والوساطة حيث لعب كبراؤهم دورا بارزا في توقيع معاهدات لصالح الدول الأوربية مع الجزائر.[296]

- **الأوربيون:** وتنقسم هاته الفئة إلى مجموعتين، تتمثل الأولى في فئة الأحرار وتضمّ القناصل والتجار وآباء وقساوسة الفدية والموظفون في المؤسسات التجارية الأوربية؛ أما الفئة الثانية فتتكون من الأسرى الأوربيون الذين يجلبون إلى الجزائر من خلال العمليات البحرية التي كان يقودها الرياس في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، وقد أحصى سيرفانتيس عددهم أواخر القرن السادس عشر بـ خمسة وعشرين ألفا، وارتفع عددهم ليبلغ سنة 1621م أكثر من إثنان وثلاثون ألفا.[297]

2- العادات والتقاليد:

2-1- الطعام واللباس:

يؤكد توماس شاو أن "زراعة الفاصلوياء والعدس والفاصولياء الكلوية، والبازلاء شائع جدا في الجزائر، حيث تزرع في أغلب الحدائق بداية من شهر مارس من كلّ سنة، ويتناول

الجزائريون هاته الحبوب طوال فصل الربيع، حيث تطبخ باستخدام الزيت والثوم، وتعتبر الطبق الرئيسي لأغلب الفئات الإجتماعية في الجزائر.[298]

في الوقت الذي تعتمد فيه القبائل العربية في مأكلها في الغالب على "الخبز والحليب والأزباد والتمور والكسكس أو ما يحصلون عليه من خلال مقايضتهم لصوف أغنامهم"، حتى أنهم لا يطعمون أنفسهم أيّ لحم إلاّ نادرا؛ وذلك رغم امتلاكهم لعدد هائل من الأغنام والجمال.[299]

ويعدّ الجزائريون أطباقا متنوعة حيث تختلف من مكان إلى آخر، منها ما يوقد على النار فيغلي، أو يشوى ...إلخ، بالإضافة إلى أن غنى وفقر الفرد الجزائري يؤثر بشكل جلي في نمط التغذية التي يتّبعها الأفراد، فتجد "الاغنياء من الأتراك والجزائريين يضعون العديد من الأطباق على طاولاتهم رفقة اللوز والتمر والسكريات والحليب والعسل"، ويذكر شاو "أنّه رأى في بعض ولائم الجزائريين أكثر من مائتي طبق منها أربعون على الأقل مختلفة عن بعضها البعض، غير أن هذا النوع من الرفاهية ليس متاحا لجميع الجزائريين وقد يقتصر على ساكنة المدن الكبرى فقط، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر لا يوجد الكثير من أدوات ووسائل الراحة بالنسبة للبدو وسكان بلاد القبائل، حيث تنحصر مقتنيات الأمير أو الملك نفسه على وعاء أو وعاءين من الخشب بالإضافة إلى قدر وغلاّية، وذلك هو جميع أثاث مطبخه".[300]

أما عند الحديث عن أكثر المشروبات استهلاكا في الجزائر فإن القهوة كانت هي سيدة المطبخ الجزائري دون منازع ولا منافس، حيث أشار لها الكثير من الرحالة باعتبار أنّها "سلعة *commodity* متداولة بشكل واسع في أوساط الجزائريين[301]،فتؤكد ماريا مارتين التي كانت أسيرة

في تنس "أن الجزائريين يقبلون على تدخين غليوناتهم وشرب القهوة مباشرة بعد تناول الطعام"[302]، في حين تحصي فلييتا من نابولي "وجود خمسة مقاهي في الجزائر العاصمة سنة 1830م".[303]

والحق أن الكثير من الكتاب والأسرى الأوربيين ممن دوّنوا مذكراتهم قد تعرضوا للقهوة "كمنتوج يرمز للكسل وتضييع الوقت"، حيث يؤكد ستيفن ويلسن جيمس بقوله: "يضيّع كلا الجنسين أغلب وقته في الكسل، بالنسبة للرجال فهم يقضون وقتهم في إحتساء القهوة والتدخين، أما النساء فيقظين وقتهن في الخياطة والاغتسال...".[304] لم يستخدم ستفين كثيرا مصطلح *Turk*في عمله كغيره من الأسرى، ولكن عندما كان يستخدم ذلك المصطلح فإنه كان يقصد به الجزائريين بشكل عام، حيث تزامنت كلمة *Turk* دائما في البناء السيّاقي لعمله مع مصطلحات مرادفة هي "الأتراك كسالى *Lazen*، خاملون *Indolence*...ولهذا فقد صوّر ستيفن القهوة كمشروب يعبّر عن عادة تركية ترادف "الإنسان التركي الكسول"، وأعطى صورة نمطية عن الأتراك الجزائريين، عبّر عنها في جمل كالآتي: "يقضي الأتراك معظم وقتهم في التدخين وشرب القهوة والخمول"، "يقضي الأتراك معظم وقتهم في المقاهي يرتشفون القهوة، ولا يخصصون أيّ وقت للقراءة لكي يحسّنوا من تفكيرهم...".[305]

وفي المقابل لا تختلف طريقة تناول الجزائريين للطعام اعتمادا على المرتبة الاجتماعية، فالكيفية التي يتناول بها الباشا طعامه هي نفسها الطريقة التي يتبعها البدويون في الأكل، حيث "يقوم الجزائريون في البداية بغسل أيديهم، ثم يقومون بأخذ جلسة القرفصاء أمامالحصيرة أو

الطاولة الصغيرة التي توضع عليها الأطباق، كما أنهم لا يستخدمون في الغالب أي سكاكين أو ملاعق، ولا يرفعون الطعام نحو أفواههم إلا باستخدام اليد اليمنى".[306]

وفيما يخصّ اللباس الجزائري، فتزودنا ماريا مارتين بمعلومات جد مهمة عن لباس أهل المدن حيث "يرتدي الرجل عباءة فضفاضة تكون أكبر مرّتين من الجسد، ويضع على خصره حزاما بداخله سكين أو سكينان يشبهان الحربة، كما يجعل على رأسه عمامة أو وشاحا ملفوفا، ويلبس نعلا أو بالأحرى جوارب من الجلد المغربي المدبوغ، وتكون في الأغلب قصيرة بحيث تغطي جزءا من الساق؛ في الوقت الذي تلبس النساء عباءات فضفاضة ويضربن على رؤوسهن بخمر يغطي شعورهن، كما أن بعضهنّ يربطن شعورهن في شكل عقد في حين تطلقه أخريات على ظهورهنّ، وتغطين رؤوسهنّ بقلنسوة حمراء أو قبعة جوانبها مطرزة بالقطن، ولعل أحد أشهر ما ترتديه النساء هو الحايك الذي يجعل فوق ملابسهنّ، ويتزين بحلقات توضع في الأذن وقلائد على العنق تكون ذا قيمة مادية كبيرة.[307]

ولعلّ أشهر ما كانت النساء الجزائريات ترتدينه هو الحايك والمحرمة أو المكرمة، والشاشية أو الكوفية وعباءة الملاية والعصابة التي تزيّنها النساء الغنيّات باللؤلؤ وأخريات بالفضّة، والبنيقة والعجار أو البرقع والملايا، وتلبس المرأة الجزائرية أيضا القفطان أحد أشهر الألبسة النسائية حيث يرجع أصله إلى الأترك، بالإضافة إلى الكراكو والجبّة أو القندورة، وترتدي المرأة في رجليها القبقاب والشبرلة والبابوش المطرّز بالذهب.[308]

ويشيع بين الرجال ارتداء اللثام والعمائم والبرنوس والقشابية والصدرية والجبادولي وغيرها من الألبسة الأخرى التي يختلف ارتداؤها حسب المكانة الاجتماعية والمالية للرجل.

وأما الأطفال فيختلف لباسهم على حسب المكانة الاجتماعية، حيث أن "أبناء البدو أو المناطق المجاورة للمدن لا يرتدون شيئا على أجسادهم حتى يبلغوا سنّ السابعة أو الثامنة".[309]

2-2- الزواج:

لقد كان اختيار شريكة الحياة بالنسبة للجزائري يتم عن طريق "الواسطة"، أين تتولى امرأة عجوز صديقة للعائلة اقتراح إحدى البنات على الوالدة[310]، في حين يذهب جون فوس إلى أن "الزوج لا يرى خطيبته قبل الزواج، حيث يوافق على الزيجة من خلال الوصف الذي يقدّمه لها والد الفتاة"[311]، حتى أن من عادات بعض العائلات الجزائرية حجب الفتاة عن أعين الناس منذ سنّ التاسعة باستثناء المحارم، ولا تشاهد المرأة إلا في الحمامات وحفلات الزفاف.

ففي إحدى الوثائق المؤرّخة سنة 1831م "التقى السيّد محمد الجنّادي ابنه في مقهى بجامع القايد صفر وأعلمه بأنّه اختار له زوجة ودفع عنه المهر، فقبل الابن وأعطى والده مبلغ الصّداق".[312]

وبعد اتفاق الطرفان على الزيجة،"يقوم الرجل بدفع الصداق الذي على عاتقه لوالد الخطيبة، كما يرسل لزوجته هدية تتمثل في الفواكه واللحوم"[313]، ثم تجرى حفل الخطبة أين يعرف في

المجتمع الجزائري "بالفاتحة أو الخطبة"، حيث يجلب الإمام إمّا للبيت أو في المسجد حيث يتم عقد الزواج على الطريقة الشرعية الإسلامية.

وما إن تنتهي الخطبة حتى "يوزّع العريس الشاربات على الحاضرين"، ويرى جون فوس "أن أهل العريس يقيمون حفلا موسيقيا بمناسبة عقد القران الشرعي على شرف أقرباء زوجته".[314]

ولا يلتقي الخطيب خطيبته حتى يأتي يوم الزفاف، أين ترتدي الزوجة أفخم ثيابها ثمانية أيام قبل الزيجةوتتأنق تأنقا بهيجا يليق بهذا اليوم، حيث توضع في خدمتها ومرافقتها أربعة نسوة؛ فلا يسمح لأي شخص بالحديث مع الزوجة باستثناء والديها وهؤلاء النسوة.[315]

أما بالنسبة للزوج "فإنّه يتجول في المدينة مرتديا برنوسا أحمرا وعلى جانبه سيف رفيع، وعلى وجهه ملقى على وجهه ليحول دون تأثير عين الشيطان على جسده... وبعد أن يجتمع بالأصدقاء والأقارب ويصلي معهم في بيته، يلتحق ببيت زوجته لحضور مراسم الزفاف".[316]

وما إن يصل الزوج بيت زوجته حتى تقوم المرافقات النسوة بسحبه من يديه وأخذه إلى المكان الذي تجلس فيه الزوجة؛ وما إن يصل إليها حتى تقوم الزوجة فتقبل يديه ورجليه، حيث يعتبر هذا الفعل إعلانا عن تبعيتها وتشريفا لزوجها.

تُحمل الزوجة بعدها إلى البيت الزوجي من قبل المرافقات، وبعد أن يتم إيصالها سالمة إلى بيت زوجها، فإن النسوة اللاتي حضرن الزيجة يتجمعن جميعهن ويمشين في الشوارع ليعلن

عن الزيجة بشكل واسع من خلال الزغاريت التي تطلقنها، فيمكن سماع أصواتهن على بعد ميلين كاملين.[317]

وقد اختلف المؤرخون في عدد الزوجات اللاتي يتخذهم الرجل الجزائري لننفسه، فيرى "جون فوس أن الجزائري يتزوج بين الإثنين والثلاثة نساء"، في حين يذهب شالر إلى التأكيد بأنّ "أغلب الجزائريين يتزوّجون بامرأة واحدة لا أكثر ولا أقل".[318]

3- الاحتفال بالمناسبات الدينية:

لقد كان الجزائريون يولون أهمية بالغة للاحتفالات الدينية خاصة وأن الفكر الصوفي كان يعمّ السلطة والثقافة الاجتماعية علماء وأفرادا، وهذا ما جعل من هذه الاحتفالات تعبيرا مباشرا عن المكنون الديني المقدس الراسخ في الجزائريين.

فيذكر ابن حمادوش أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في الجزائر أكثر صخبا وزينة من ذلك الذي وجده في فاس، فيقول: "لقد لقيت في فاس الطبالين والعياطين وآلات الطرب طلّها في السوق، ذاهبين بأربعة قباب من الشمع كل واحدة من لون خضراء وأخرى بيضاء وأخرى حمراء"، كما كان الشعراء يكتبون أشعارا سنوية كلّما أهلّ عليهم يوم المولد النبوي الشريف.[319]

ويحتفل الجزائريون أيضا بالمولد إما في بيوتهم أو في المساجد حيث تلقى هناك الخطب والمواعظ عن سيرة النبي محمد صلّى الله عليه وسلم، ويذكر هايدو: "تحضّر العائلات الجزائرية

ليلة المولد طبق الكسكس مرفوقا باللحم، كما يضع الجزائريون بعض الأطباق على الشرفات والساحات والطرقات معتقدين أن النبي صلى الله عليه وسلم سيزورهم في هاته الليلة".[320]

وأما عن الأعياد فيؤكد جون فوس الأسير الأمريكي قائلا: "بمجرد إعلان يوم عيد الفطر حتّى تنطلق الاحتفالات والولائم التي تستمرّ يومين كاملين، وخلال هاذين اليومين يتم الإغلاق عن الأسرى غير أنه يمنح لهم رغيف خبز من اللون الأبيض لذيذ الطعم"[321]، في حين يورد هابسنرايت الإعلان عن عيد الفطر بقوله: "ما إن يصل الخبر برؤية هلال العيد إلى الداي حتى يعطي أوامره بإطلاق القذائف من المدافع إيذانا بالعيد، وقد جرت العادة أن يلتقي الناس بعضهم البعض في اليوم الأول من عيد الفطر فيلقون السلام ويتبادلون التهاني[322]، ويتبادل فيه الجيران والأفراد الحلويات والهدايا حتى أن الجزائريين كانوا يطلقون عليه سكر بيرام أي عيد السكر.[323]

ويرتدي الساكنة أجمل ما لديهم من الثيّاب وخاصة الأطفال، حيث تكون نوعية وجودة هذه الملابس مرتبطة دائما بالحالة الاجتماعية للفرد، فيرتدي الغني الثياب المطرزة بالذهب والفضّة والسراويل المصنوعة من الصوف أو القطن، ويذكر هاينريش "أنّ الجزائريين القاطنين في

المدينة يرتدون أجمل الثيّاب على عكس أهل الأرياف الذين لا يعطون بالا لارتداء الثيّاب"، كما تخرج النساء إلى الميادين والساحات العامة حتى أن عددهنقد يعادل أو يزيد عن عدد الرجال.[324]

وتقدّ الهدايا والنقود للأطفال، كما يوجد في باب الواد عجوز تركي يقوم بإدارة عجلة كبيرة فوقها عدد من الأطفال وهم يمرحون، كما يستيقظ الناس يوم العيد على أنغام الموسيقى الصاخبة التي يعزفها السود...".[325]

وما إن يمضى شهران على عيد الفطر حتى يبدأ الجزائريون بالتحضير لعيد الأضحى الذي يطلقون عليه "كيوك بيرامي" تأثّرا باللغة العثمانية[326]، فيذبحون الأضاحي قربانا لله سبحانه وتعالى، فأما الأغنياء فيذبحون "بقدر عدد أفراد العائلة"[327] في الوقت الذي يذبح فيها الساكنة البسطاء شاتا واحدة فقط، وفيما يخصّ الداي؛ فبعد أن يؤدي صلاة العيد في مسجد الحوآتين، يقوم بالاشراف على عملية ذبح الأضحيات حيث تكون هاته الطقوس مصحوبة بطلقات البنادق والموسيقى العسكرية، لتفتح بعدها أبواب قصر الداي أين يقدّم الكسكس للحاضرين".[328]

وكان الجزائري يولي أهميّة بالغة بالحجّ كيف لا وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، فيتمنى كلّ فرد زيارة الكعبة في يوم من الأيام، وأما عن طقوس التحضير لهاته الشعيرة، فيذكر

الورتلاني ما مفاده "أن الحاكم الجزائر العاصمة كان يعطي أوامره للشيخ سيدي الموهوب من أجل ضرب الطلب إذانا ببدء موسم الحج".[329]

وما إن تفد الأخبار إلى البقاع الجزائرية حتي يشرع السكان في إعداد البغال والخيّام وشراء الحبوب المجففة كالفول والعلف والرواحلوالجمال والخيول وكرائها، ويحتشد الناس في جماعات للحديث عن الحج والتحضيرات.[330]

وهكذا يشرع الركب في السير نحو البقاع المقدسّة متبعا الطرق الاعتيادية حيث يمر الركب عبر طريقين، "فيصل عدد الركب في بعض الأحيان إلى ثلاثمائة حاج"[331]، أما الطريق العلوية في لا تخضع لسلطة العثمانيين وتمر عبر أوكرت، تيميمون، المنيعة، واركلا، تماسين، تقرت، واد سوف، الرباح، وادي العلدنة وتنتهي هذه الطريق إلى المدخل الجنوبي الغربي التونسي، في حين يمر الطريق السفلي التابع للسلطة الجزائرية عبر بلاد توات إلى إقليم قزّان جنوب ليبيا حتى يصل إلى البقاع المقدسة[332]، وهناك طريق ثالث يمرّ عبر قسنطينة وصولا إلى تونس ومن هناك يأخذ الحجاج طريق البحر، ويذكر الورتلاني طريق رحلة حجّ أحد الركب قائلا: "ولمّا ودّعت أهل

بجاية رجعنا إلى دارنا عازما على السفر وجاءنا الركب من جبل زواوة نحو الثلاثمائة رجل واشتغلنا بهم إلى أن ذهبوا إلى قسنطينة ثم إلى تونس ليذهبوا في البحر".[333]

المحاضرة الثامنة

التعليم والمؤسسات الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني

لقد أدى ظهور طبقة من الحكام الجهلة الأميّيين إلى إهمال الجانب العلمي أو حتى التفكير في تطويره، علما أنّ الكثير منهم كان عدوا للعلماء "وقد بلغ ببعضهم الحمق إلى الاقدام على قتل الكثير منهم"، وفي مقابل هذا الاهمال برز العلماء كفئة موازية للسلطات الحاكمة سدّت الفراغ الحاصل، حيث برز العديد منهم في مجالات متعددة مثل التعليم والقضاء على الطريقة المالكية وحلّ الخلافات بين القبائل المتناحرة وغيرها من القضايا التي أوكلت لهم عندما تخلّت السلطة الزمنية عن دورها.

1-التعليم:

لقد قسّم المؤرخون التعليم خلال العهد العثماني إلى ثلاثة أطوار جاءت كالآتي:

1-1-التعليم الابتدائي: لقد كان التعليم الابتدائي متوفرا لأغلب الجزائريين فلا تكاد تخلو قرية من وجود مدرسة قرآنية أو كتّاب تابع للمسجد، كما انتشرت الكتاتيب والمدراس القرآنية بشكل واسع في جميع ربوع الوطن، "حتى كان لا يخلو منها حيّ من الأحياء في المدن ولا قرية في الريف، بل إنّها انتشرت حتى بين أهل البادية والجبال النائية، وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التعليم وانعدام الأميّة بين سكانها"، وتذكر بعض المصادر "أنّ الجزائر العاصمة قد ضمّت لوحدها مائتين وتسعة وعشرون مدرسة بها خمسة آلاف وخمسمائة تلميذ"[334]، وجاء على لسان الجنرال ولسن وسترهازي "أن الجزائريين الذين يحسنون القراءة والكتابة

كانوا في ذلك العهد أكثر من الفرنسيين الذين يقرؤون ويكتبون، فخمسة وأربعون بالمائة من الفرنسيين قد عاشوا خلال ذات الفترة أميين".[335]

ويؤكد توماس شاو أن الطفل الجزائري وبمجرد بلوغه سنّ السادسة يرسل إلى المدرسة، أين يتعلم هناك القراءة والكتابة حيث يكرر ما حفظه مع زملائه بصوت واحد –يقصد حفظ القرآن–، وهم لا يستخدمون أي ورق، حيث يكتب كلّ طفل ما يتعلّمه على لوحة رقيقة، ونفس الأمر يتعلق باليهود الذين يستخدمون هم الآخرون لوحة صغيرة تدعى الزابور[336]، ويذكر الأب دان: "أن الأطفال يستخدمون في الكتابة على هذه اللوحة قصبة صغيرة... في حين يستعمل الأستاذ عند معاقبة الطفل مسطرة خشبية صغيرة يضرب بها الطفل أسفل القدم – الفلقة–".[337]

وقد وُصف الكُتّاب على أنّه "حجرة صغيرة مفروشة بحصر بالية"، يتعلّم فيها الطفل " الكتابة والقراءة وبعض مبادئ الحساب، وعادة ما يتراوح عدد مرتاديها بين الخمسة عشر والعشرون طفلا، يدرسون فيه ما بين الثلاثة والأربعة سنوات، وأما الذي يرغب في مواصلة الدراسة فإنّ عليه البقاء من أجل تعلم وحفظ القرآن كاملا"[338]، وما إن ينهي "الطفل حفظ القرآن حتى يقيم له ذووه حفلة على شرفه، وذلك بحضور شيخ الكتاب الذي يتلقى ما تيّسر

من المال والهدايا"[339]، ويقصّ علينا شاو طريقة الاحتفال بالطالب الناجح قائلا: "ما إن ينهي الطفل تعلّمه، حتى يتم تقديره تقديرا حافلا، فيتم حمله على ظهر حصان من قبل رفقائه في المدرسة ويسيرون به في الشوارع وهم يصرخون، في الوقت الذي يلتقى أصدقاؤه وأقرباؤه ليهنؤوا والديه بمناسبة نجاح ابنهما ويقدمان للطفل الهدايا"[340]، وهكذا يمكن للطفل الطالب أن ينتقل للمرحلة القادمة.

وأما عن طريقة التعليم "فيجلس الأطفال في دوائر نصفية، ويملي عليهم المعلّم أجزاء من القرآن الكريم حيث يكتبونها على ألواح خشبية مطليّة بطين الصلصال، ويستخدمون في الكتابة أقلاما من القصب وصمغ مصنوع من الصوف المحروق، وما إن يحفظ الطفل القرآن المدوّن على اللوحة حتى يقوم بمحوه وكتابة سور أو آيات جديدة".[341]

ويبدو أن أغلب الأطفال لا يواصلون دراستهم، حيث "يتم توظيفهم لمدّة ثلاث أو أربعة سنوات لتعلّم التجارة أو الالتحاق بالجيش أو أي من المهن المتوفرة في البلد، وهناك عدد قليل من هؤلاء الأطفال ممن يحتفظون بما تعلّموه في دراستهم، إذا استثنينا أولئك الذين يكملون الدراسة أو يشتغلون في جباية الضريبة".[342]

1-2-التعليم الثانوي: ما إن ينهي الطفل تعليمه في الكتاب أو الريف حتى يلتحق بالجامع أو مدرسة ملحقة بالأوقاف ليواصل دراسته بها، حيث يكون التعليم فيها مجانيا، "ويتراوح سن الطلبة في الطور الثانوي بين العشرة والستة عشر سنة".[343]

يتلقى العلم في هذه المرحلة حوالي ثلاثة آلاف طالب في كل إقليم، أين يتلقى المتعلّم في نهاية المرحلة إجازة شفوية تسمح له بتولي وظيفة مؤدب أو كاتب،[344] وقد اهتمت هذه المدارس بتعليم العلوم الشرعية وعلم الحديث والفقه والنحو واللغة والتوحيد وعلم الحساب وقراءة بعض الأعمال الطبية، ومن أبرز هاته المدارس مدرسة مازونة ومدرسة القيطنة ومدرسة المحمديّة وغيرها.[345]

1-3-التعليم العالي: كان التعليم في هذا المستوى مجانياً، حيث يعتمد في مداخيله اعتمادا شبه كليّ على الأوقاف أو الحكومة حيث "يتلقى الأستاذ أجره من أموال الوقف أو الدولة"، وقد انتشرت المدارس التي تعنى بالتعليم العالي، مثل المدرسة القشاشية ومدرسة الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام، غير أن هذه المدارس لم ترقى إلى مستوى الجامعة رغم أن فونتير دي باردیس قد أشار إلى أنّ "بالجزائر ثلاث جامعات يتم فيها تدريس مذهب مالك ابن أنس"[346]

وكان يدرس في هذا الطور بكلّ إقليم ما بين الـ الستمائة والثمانمائة طالب، يشرف على تدريسهم أستاذا يلقب بـ "العالم"، ورغم أن "الجزائر لم تكن تضمّ جامعة بالمعنى الحرفي توحد المناهج غير أنّ دروس جوامعها الكبيرة كانت تضاهي أو قد تفوق أحيانا دروس الجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين، لتنوع الدراسات فيها وتردد الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي".[347]

وقد حفلت هذه المدارس العليا بتدريس مختلف أنواع العلوم، حيث يتلقى الطالب فيها: [348] **1- العلوم الشرعية:** تحفيظ القرآن وتفسيره وشرحه وتعليم الفقه والتوحيد والمنطق والأصول.

2- علوم اللغة والأدب: منها النحو والبلاغة والصرف والعروض والقوافي وقواعد الانشاء.

3- العلوم الطبيعية والتجريبية: كالفلك والحساب والصيدلة العشبية وغيرها.

والحق أن العلوم الطبيعية والتجريبية لم تكن سوى علوما نظرية ترتكز على قراءة أعمال ومؤلفات السابقين دون ابداع أو إعادة استخدام لها في الحياة اليومية، وفي هذا الخصوص ينتقد توماس شاو سوء اهتمام الجزائريين بالرياضيات والطب، قائلا: "لقد التقيت في الجزائر كبير الفلكيين المكلّف بضبط مواعيد الصلوات، حيث لاحظت أنه لا يعرف الكثير عن الفلك والملاحة، كما أنني لم ألتقي الكثير من الأطباء... غير أنّني عندما التقيت طبيب الداي سألني قائلا: هل يعرف المسيحيون "بوقراط"، بما معناه أبو قراط –يقصد أبقراط–، حيث يعتقد مثل باقي الجزائريين أنه أول طبيب عربي عاش قبل ابن سينا".[349]

إنّ هذا النوع من التعليم قد خلق في النهاية نموذجا تلقينيا يخلوا من أي منهجية أو تنظيم أو مؤسسات قائمة بذاتها، حيث انحصر كلّ التعليم في اللغة العربية والفقه والحديث وأصول الدين وغيره من التعليم النظري الذي كان يحتاجه العامة، في الوقت الذي لم "يكن هناك الكثير من العلماء في مجال الهندسة والرياضيات والمنطق والطب ... إلخ"، فقد استمر علماء العهد العثماني في استخدام كتب الرياضي الأندلسي القلصادي الذي توفي سنة 1487م، في حين "آمن العامة إيمانا راسخا أن جميع الأمراض قد تحتاج إلى عقار واحد"[350]، فانتشر الاعتماد على السحر والشعوذة والغيبيات بشكل واسع في أوساط الناس، وفي خضم كل هاته العتمة والسوداوية برز عالم متميز هو ابن حمادوش الذي اختصّ وتميّز في طبّ الأعشاب، حتى أنّ السكان قد استمروا في استخدام خلطاته العشبية حتى خلال الاستعمار الفرنسي، وكل هاته الأوضاع جعلت من "الدايات وحاشيتهم وأعيان وأغنياء الجزائر يقبلون على الأطباء الأوربيين ويثقون فيهم دون غيرهم".[351]

2-العلوم المتداولة في الجزائر العثمانية.

1-1- العلوم الشرعية: كانت العلوم الدينية خلال العهد العثماني هي الغالبة والسائدة في تآليف علماء الجزائر وذلك مردّه إلى طبيعة ومتطلبات المجتمع الجزائري الذي شاع في أوساطه التصوّف والزهد، وهكذا فإنّ المكتبة الجزائرية لم تكن في الغالب تخرج في إنتاجها عن "الأحاديث الدينية والفقه والأصول والعلوم اللغوية"[352].

ورغم انتشار التصوّف بين علماء الجزائر، إلا أنّ ذلك لم يمنع من ظهور بعض العلماء السلفّيين الذين لم يخرجوا عن الكتاب والسنّة خشية "الابتداع"، فبرز في هذه الفئة ابن الفكون وعبد القادر الراشدي القسنطيني (1700-1780م) الذي اختصّ في علم التوحيد والعقيدة، "وهو عالم مجتهد ومعادي للتأويل له آراء تجديدية خارج الفكر الصوفي غير أنه اصطدم بالجمود الفكري الذي ميّز عصره، وله قصيدة ذائع صيتها ينتقد فيها العلوم العقلية حتى أن القارئ لها ليستشف أن شعره فيه من البلاغة والجمالية ما لم يوجد في علماء عصره، فيقول فيها: "[353]

خَبِّرَا عَنِّي المُؤَوِّلَ أَنِّي كَافِرٌ بِالَّذِي قَضَتْهُ العُقُولُ

مَا قَضَتْهُ العُقُولُ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ بَلِ الدِّينُ مَا حَوَتْهُ النُّقُولُ

أَتَقُولاَنِ إِنَّ ذَا أَكْثَرُ النَّـا سِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَعُدُولُ

شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنِ اللهُ أَوْ يَقُلْهُ رَسُولُ

1-2- الشعر: لقد تنوع تداول الشعر خلال العهد العثماني بين السياسي والاجتماعي والديني والذاتي وحتى الثقافي، فلم يخلو تأليف من بعض الأبيات الشعرية.

والحق أن الشعر الملحون كان هو الغالب خلال العهد العثماني، حيث برز فيه العديد من الشعراء المتميّزين أمثال لخضر بن خلّوف وقصيدته عن "معركة مزغرام سنة 1558م، وكذا قصيدة الناصري عن فتح وهران سنة 1792م... إلخ".

وهكذا "فإنّ تأليف الشعر العرربي الفصيح لم يكن في بيئة تدعمه وتغذّيه وتطوره؛ خاصة مع وجود ولاّة وبايات وحكام لا يتذوّقون الأدب والفكر، ذلك أنّ أغلبهم كانوا على درجة كبيرة من الجهل باللغة العربية، فامتنعوا عن تشجيع الشعراء والشعر سواء ماديا أو حتى معنويا، واهتموا

بالصراع عن السلطة الزمنية، وهكذا فإن الكثير من الشعراء اعتزلوا الشعر بأعتبار أنه لا يطعم خبزا لأصحابه "وراح أغلب الشعراء يكتبون بداعي الهواية فقط، فطغى التقليد وزال التجديد، وأصبح التأليف في الشعر مجرد مضيعة للوقت كجعل البيت يبدأ من اليمين إلى اليسار والعكس صحيح:[354]

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

1- 3- علوم اللغة والنحو: لقد كان التأليف في علوم اللغة محدودا وحكرا على علماء أمثال محمد بدوي الجزائري الذي لخّص كتاب "الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد" لصاحبه أبي حيّان يوسف الأندلسي، وعنونه بـ "الارتضاء في الفرق الضاد والظاء" الذي ألّفه سنة 1715م، كما كتب أبوراس الناصري مؤلّفا أسماه "ضياء القابوس في كتاب القاموس"[355]، وعلى عكس التأليف في علوم اللغة فإنّ التأليف في النحو قد شهد نشاطا لا بأس به حيث برز في هذا الحقل بعض العلماء الجزائريين، كعبد الكريم الفكون الذي "ألّف مجموعة من التآليف في النحو والصرف لعل أبرزها كتابه "شرح شواهد بن يعلي على الأجرومية"، و"فتح الهادي في شرح جمل المجرادي"[356]، في حين برز في النحو علماء كثيرون أمثال يحيى الشاوي وخليفة بن حسن القماري وأبي القاسم محمد بن محمد البجائي وسعيد قدورة وأبو رأس الناصري وغيرهم الكثير.

وفي المقابل ظهر جيل من العلماء تميّزوا في البلاغة أمثال عبد الرحمن الأخضري صاحب كتاب "الجوهر المكنون في صدق الثلاثة فنون"، وهي قصيدة تلخّص" كتاب التلخيص"

لجلال الدين القزيني، وأما فيما يتعلق بعلم العروض فقد قلّت التآليف في هذا الحقل، بشكل جليّ ولم يبرز الكثير من العلماء سوى البعض، مثل: السعيد قدّورة صاحب كتاب "المنظومة الخزرجية".[357]

4- علم الكلام والمنطق: ويعرّف مصطفى الرماسي الذي عاش في القرن الثامن عشر علم الكلام بقوله: "علم الكلام أوثق العلوم وأوضحها دليلا وأشرفها فوائد، وأنجحها مقاصد، إذ به تعرف ذات الحق وصفاته، ويصرف عنه ما لا يليق به ولا تقبله ذاته".[358]

لقد برز في الجزائر العثمانية عدّة علماء متميّزين في "علم الكلام"، فسادت بينهم عقائد الأشعري، ولعل أشهر هؤلاء العلماء هو العالم الصوفي السنوسي التلمساني صاحب كتاب "شرح أم البراهين"، حيث استخدم مؤلّفه خلال العهد العثماني على نطاق واسع وبلغت شهرته الآفاق.

وعلى عكس الإنتاج العلمي في علم الكلام، فإنّ علماء الجزائر لم ينتجوا الكثير في علم المنطق، إذا استثنينا علماء كالسنوسي وابن القنفذ والمغيلي، "ويرجع نقص التأليف في المنطق إلى صعوبة هذا العلم "فهو يحتاج إلى عالم موسوعي واسع الإطلاع حتى على الأعمال الأجنبية وكذا أعمال السابقين، أما السبب الثاني فمرجعه إلى طغيان التصوّف حيث خشي أغلب العلماء من أن تؤدي بهم دراسة المنطق في النهاية إلى الالحاد".[359]

3-المؤسسات الثقافية:

3-1- الكتّاب: هو مؤسسة تشبه إلى حد ما المدرسة الابتدائية في عصرنا الحالي، تعنى بتعليم الأطوار الأولى "مبادئ القراء والكتابة وتحفيظ القرآن والحساب، وقد مثّل الكتاب أحد "أقدم المراكز التعليمية في العالم الإسلامي حتى أن بعض المصادر تشير إلى أن العرب قد عرفوا الكتّاب حتى قبل الإسلام ولو أنه كان منتشرا على نطاق محدود... حتى أن أبي القاسم البلخي يذكر أنّ كان يمتلك كتّابا يتعلّم به ثلاثة آلاف تلميذ، وكان فسيحا جدا بحيث يحتاج إلى أن يركب حمارا ليتردد بين طلاّبه ويشرف على شؤونهم"[360]، وأمّا في الجزائر العثمانية "فقد تراوح عدد مرتاديه بين الخمسة عشر والعشرين طفلا.[361]

لقد أنشئ الكتاب لتجنيب المساجد ضوضاء الأطفال والمتعلّمين، فأطلق عليه لقب "الشريعة في الأرياف و"المسيد" في المدن[362]، وكان الكتّاب في "الغالب عبارة عن حجرة أو دكان أو جناح في مسجد... حتى أنّ بعص الواقفين كان يكتفي بفتح غرفة في منزله على الشارع ويجعلها كتّابا للأطفال، كما ضمّت زوايا المرابطين أجنحة خاصة لتعليم الأطفال وتحفيظهم القرآن".[363]

وتولى "بناء الكتاتيب والاشراف عليها أفراد من جميع طبقات المجتمع، كالباشاوات والبايات والموظفون السامون وحتى العامة"[364]، ومن أشهر هذه الكتاتيب التي كانت منتشرة في حيّ القصبة وحده:[365]

1- مسيد برقيصة.

2-مسيد سيدي بوقدور وضريحه.

3-مسيد سيدي ابن علي وفريحه.

4-مسيد الحمامات.

5-مسيد حوانيت سيدي عبد الله.

6-مسيد الدالية.

7-مسيد جامع الزاوية -تنسب إلى محمد الشريف الزهار-

8-مسيد جامع سفير.

3-2- المساجد: لقد انتشرت بشكل واسع في الجزائر باعتبار أنّها مكان مقدّس تقام فيه الصلوات، فجمعت بين العبادة والتعليم، ولعبت أدوارا متقدمة في حياة الفرد الجزائري، فأصبحت مركزا للإشعاع الحضاري تقام فيه الدروس حتى أن بعض المساجد كانت بمثابة الجامعة، تولّت نشر اللغة العربية والمعرفة الإسلامية خاصة مع وجود حكام وأقليّة تركية لا تفقه ولا تتحدث هاته اللغة.

أخذت المساجد عدّة تسميات، منها من نسب إلى "الحرفيين مثل مسجد الشماعين والخيّاطين والحلفاويين والكبابطة... وأخرى نسبت أسماؤها إلى الأفراد مثل مسجد علي بتشنين وعبد الله صفر وسيدي عبد الله وسيدي محمد الشريف، في حين تسمّت أخرى بالموقع الذي بنيت عليه مثل مسجد البراني ومسجد كتشاوة وغيرهم[366]، ويؤكد فونتير أن "أكبر هاته المساجد الموجودة في الجزائر العاصمة هو "الجامع الكبير"، الذي يتبع للمالكيين حيث يشتغل فيه مفتيان وقاضيان، يلتقي كلّهم يوم الخميس من أجل البتّ في قضايا العامة التي لا تستطيع المحكمة إصدار أحكام

فيها، بالإضافة إلى تقسيم المواريث... وأما يوم الثلاثاء فهو يوم عطلة يقضيه القضاة والمفتين في منازلهم الريفية".[367]

وقد بلغت المساجد من القداسة ما جعلها مركزا "يفرّ إليه حتى المجرمون أو أولئك الملاحقون من قبل العدالة الجزائرية، فلا ينالهم أي عقاب ما داموا داخله، خاصّة إذا كان المسجد تابعا لأحد الأولياء الصالحين، كما يمكن للأسير المسيحي أن ينجو من العقاب إذ هو فرّ إليها قبل أن يقبض عليه، على أن يوثق قدمه بسلسلة نهايتها عبارة عن كرة حديديّة، أما في حال قبض على أحد اليهود داخلها فإنّه يحرق أو يصلب حيّا"[368]، غير أن بلايفر يخبرنا قصّة مغايرة "فبعد أن دخل قسيس إلى أحد مساجد العاصمة وهاجم الديانة المحمدية؛ قامت السلطات بالإمساك به وأحراقه حيّا"[369]، ويذهب فونتير دو بارادي إلى أن "اليهودي أو المسيحي الذي يقع في مشكل مع المسلم؛ يحاكم في فناء مجاور للجامع أي أنه لا يلج المسجد"[370]، وهذا ما يدلّ على أنّ أهل الذمّة لم يكن يسمح لهم بدخول المساجد.

إن المساجد الجزائرية بنيت بطريقة جيّدة وفخمة جعلها تعادل في جماليتها وضخامتها المباني الرئيسية الموجودة في المدن الجزائرية الكبرى حيث يمكن يوازي عمرانها قصر الداي والمستشفى الخاص بالأسرى، ويؤكد جون فوس: "أن مساجد مدينة الجزائر مبنية بشكل رائع".[371] وأما عن عددها فقد اختلفت على حسب كلّ عصر وفترة، حيث يذكر فونتير دي بارادي الذي زار الجزائر بين سنتي 1788-1790م "أن الجزائر العاصمة بها اثنا عشر جامعا كبيرا والعديد

من المساجد الصغيرة"[372]، أما جون فوس الذي كان أسيرا بالجزائر العاصمة خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1793-1795م، فيذكر "أن عددها قد بلغ خمسة وستين مسجدا"[373]، في حين يذهب دوفو "إلى أن عدد المساجد في الجزائر العاصمة سنة 1830م، قد بلغ إثنا عشر مسجدا كبيرا ومائة وتسعة مساجد صغيرة، وتناقص عددها سنة 1862م ليصبح تسعة مساجد كبرى وتسعة عشر مسجدا صغيرا".[374]

وأما فيما يخصّ التنظيم العام لهذه المساجد، فإن من عادات الجزائريين "رفع العلم الأبيض وقت صلاة الظهر، ثم العلم الأخضر إيذانا بدخول وقت صلاة العصر، ويسمّونه بانتيرا نيفا أي ساعة نشر علم السفينة، وفي المساء فانتير أباسا أي ساعة طيّ العلم".[375]

3- الزوايا: إنّ "أوّل من بنى الزاويا هم الصوفية والمرابطون، يبتغون بها الابتعاد عن صخب وضجيج المدينة، وأملا في الهدوء الذي يساعد على التأمل والعبادة"[376]، وقد ظهرت الزوايا في المغرب العربي منذ القرن 13م، لتحلّ محلّ الرباط بشكل تدريجيّ ثم أصبحت خلال العهد العثماني مؤسسات بيد الصوفية والمرابطين.[377]

والحقيقة أن الزاوية كانت أقدس حتى من المسجد؛ خاصة بالنسبة لأتباع الطائفة الصوفية، ولما كان العثمانيون قد أسّسوا إمبراطوريتهم على الطريقة الشاذلية الصوفية؛ فإنّهم عاملوا الطرق الصوفية وزواياهم بعين الاحترام والريبة في نفس الوقت، "فجعلوا الزاوية مكانا مقدّسا هو آمن من

دخلها"، ويذكر جون فوس بقوله: "يلتقي المجرم الجزائري الذي يفرّ إلى مسجد المرابط –الزاوية– ، المفتي ويعلمه عن وضعيته القانونية، فيقوم الأخير بإعلام الداي عن وجود مجرم في زاويته، فيرسل الداي بدوره مسبحة إلى المفتي كرمزية على العفو وهكذا يطلق سراح المجرم، وعلى الرغم من أن الأخير يمكنه أن يخرج من المسجد طوعا؛ غير أنّ إقدامه على فعل ذلك دون وصول المسبحة يعني أنه معرّض للعقوبة".[378]

وقد قسّمت الزوايا في الجزائر إلى نوعين: زوايا حرّة لا تنسب إلى وليّ أو طريقة معيّنة، كزاوية عبد الرحمن اليلولي، وأمّا النوع الثاني فيخضع في تسيير شؤونه إلى الشيخ المؤسس[379]، ومن أشهر زاويا هذا النوع: "الزاوية القادرية في الأوراس، وزاوية القيطنة في معسكر التي تأسست سنة 1785م على يد جدّ الأمير عبد القادر.[380]

وقدّمت لنا الإحصاءات انتشار عدد هائل من الزوايا على جميع ربوع الجزائر خلال العهد العثماني، فأحصى دوفو "إثنا عشر زاوية وإثنان وثلاثون ضريحا سنة 1830م، غير أن هذا الرقم قد تناقص بشكل جليّ سنة 1862م فأصبح عددها خمسة زوايا وخمسة عشر ضريحا"[381]، في الوقت الذي وجد في مدينة قسنطينة ستة عشر زاوية، وثلاثون زاوية في تلمسان وخمسون في بلاد القبائل، عمّت الزوايا الصحراء وكان أبرزها زواية عين ماضي وزاوية قرومة وزاوية طولقة... إلخ.[382]

الخاتمة

الخاتمة

لقد خلصنا في نهاية هذه المطبوعة إلى مجموعة استنتاجات نعتقد أنها ذا فائدة للطالب:

– شهد الحكم العثماني في الجزائر أربعة مراحل هي: هي مرحلة البايلربايات 1519–1587م، ومرحلة الباشاوات 1587–1659م، ومرحلة الأغوات 1659–1671م، وأخيرا مرحلة الدايات التي امتدت بين سنتي 1671–1830م.

– استطاعت الأقلية الحاكمة المتشكّلة من الأتراك والأعلاج المهتدين من السيطرة على الحكم طيلة ثلاثة قرون كاملة، وذلك بداية من سنة 1519م وإلى غاية سنة 1830م.

– شهد المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني في الجزائر انفلاتا فادحا أدى إلى انتشار الفوضى والاغتيالات في أواسط الحكام، حتّى قيل أنّ "انقلابا حدث سنة 1732م أدى إلى وفاة ستّة دايات في يوم واحد".

– لمّا كانت الأقلية الحاكمة في غالبها أعجمية اللسان، فإنّها فسحت المجال للعلماء والفقهاء والقضاة من أهل الجزائر ليكونوا وسطاء بين السلطة والعامة.

– قام نظام التعليم خلال العهد العثماني على الوقف ما أدّى إلى غياب سياسة تعليمة تابعة للدولة وقائمة على مناهج ومقررات دراسية حقيقية.

– دافع الأتراك بشراسة عن الجزائر ضد الهجمات الأوربية التي مسّت البلد طيلة التواجد العثماني في الجزائر 1519–1830م، غير أن علاقاتهم بالعامة كانت في أغلب الوقت متوترة خاصة إذا علمنا أنّ هاته العلاقة قد قامت على "الجباية"، ما أدى إلى نشوب الثورات بشكل لم ينقطع طيلة فترة الحكم العثماني في الجزائر، ومن هذه الثورات التي أثّرت على السلطة الجزائرية: ثورة ابن الصخري سنة 1637م وثورة الكراغلة سنة 1633م، وثور الدرقاوي وابن الأحرش مطلع القرن التاسع عشر.

الخاتمة

– لقد تميّزت العلاقات الجزائرية الأوربية بالفتور تارة والاتزان تارة أخرى، فأقيمت المعاهدات والاتفاقات بين الفريقين حتى أن الفترة الممتدة بين سنتي 1686–1770م قد شهدت استقرارا تاما، باستثناء الحملة الاحتلالية الاسبانية على وهران سنة 1732م.

وفي المقابل قاد الأوربيون عدّة حملات بحرية على الجزائر كان البعض منها ذا دمار هائل على البلد وتحصيناتها، ولعلّ أهم هذه الحملات هي: حملة شارلكان على الجزائر سنة 1541م، والحملة الانجليزية سنة 1620م، ثم الهولندية سنة 1661م، فالحملات الفرنسية المتتالية لسنوات 1682م و1683 و1686م، فالحملة الدنماركية سنة 1770م ثمّ الحملات الاسبانية سنوات 1775م، 1782م، 1783م، وأخيرا الحملة الانجليزية سنة 1816م.

– إنّ حملة اللورد إكسموث سنة 1816م كانت القشة التي قسمت ظهر البعير وأردته قتيلا، حيث أنّ الخراب الذي خلّفته جعل من المستحيل أن تقوم للجزائر قائمة بعدها، وما يثبت ضعف تحصينات ومعنونات السلطة هو قدرة الانجليز أنفسهم فرض حصار على الساحل الجزائري بسفينة واحدة من نوع السفن العالية سنة 1824م.

– في الوقت الذي تقدّمت في الدول الأوربية؛ وبخاصة فرنسا وإنجلترا خطوات كبيرة في مجال التصنيع العسكري، كان الأسطول الجزائري لا يزال حتى أوائل القرن التاسع عشر يعتمد اعتماد شبه كليّ على سفن من نوع الغراب والشبّاك والغليوطة، وهي في الحقيقة سفن كان يستخدمها الأوربيون خلال هذه الفترة في صيد الأسماك.

– كان الفساد الذي ضرب جميع أركان السلطة بالإضافة إلى تخلّف الساكنة المحليّة وبروز القبيلة ونعراتها مفتتا للمدينة وبخاصّة في المناطق البعيدة عن مراكز السلطة التركية والمدن الكبرى، فأدى اجتماع كلّ هذه الأزمات في الأخير إلى سقوط الجزائر بيد الفرنسيين سنة 1830م.

الخاتمة

قائمة الملاحق

قائمة المصادر والمراجع

الفهرس العام

مقدّمة	**03**
المحاضرة الأولى: الغزو الإيبيري للمغرب العربي أواخر القرن 15م ومطلع القرن 16م.	**08**
المحاضرة الثانية: إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية 1510-1519م.	**20**
المحاضرة الثالثة: عهد البايلربايات 1519-1587م	**34**
المحاضرة الرابعة: عهد الباشوات 1587-1659م	**51**
المحاضرة الخامسة: عهد الأغوات 1659-1671م	**73**
المحاضرة السادسة: عهد الدايات 1671-1830م.	**89**
المحاضرة السابعة: المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م.	
المحاضرة الثامنة: التعليم والمؤسسات الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني	**132**
الخاتمة	**147**
قائمة الملاحق	**151**
قائمة المصادر والمراجع	**155**